المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

كلية الدعوة والاعلام

قسم الدعوة

الدكتور محمد عبد الله دراز
وجهوده في الدعوة

بحث مكمل لنيل درجة الماجستير

اعداد

طامي بن هديف البقمي

باشراف الدكتور/ عبد الله يوسف الشاذلي

١٤٠٧ هـ

١٩٨٧ م

بســـــم الله الرحمن الرحـــــــيم

بسم الله الرحمن الرحيم

((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنـــــــــــــــون))

الاهـــــداء ..

الــــى .. كل الدعـــــاة المسلمــــــين

حيال نشر الدعوة الاسلاميـــــة

بالقـــــول .. والعمــــــــل

أهدى هذه السطور

فان لنا قدوة ..

فى دعــــاة المسلمين جميعـــــا

ومنهم فارس هذا البحــــــث

الدكتور محمــــد عبد اللــــــه دراز
" رحمه اللـــه "

شكـــــــــــر

يشرفني ويسعدني أن أزجي خالص شكري وبالغ تقديري وعرفاني الى كل من أسهم معي بجهد سواء كان رأيا أو نصيحة أو عمـــلا كتابيا أو زودني بمرجع أو كتاب ممّا أعانـــني على انجاز هذا البحث واخراجه بصورتـــــه الراهنــــــة ..

كما أقدم الشكر الجزيل لأستاذي الدكتور عبد الله يوسف الشاذلي المشرف على البحث الذي منحني من علمه وآرائه وتوجيهاتـــــه ووقته الكثير ، واستجاب دائما لما رجوت ، وأجاب على ما سألت ، وشملني برعايتـــــه ومتابعته الجادة المثمرة طوال فترة الاعداد .

والشكر مكرر كذلك لجميع أساتذة الدراسات العليا بكلية الدعوة والاعلام وعلى رأســـــم فضيلة الدكتور سعود البشر عميد الكلية .

جزى الله الجميع خيرا وأثابهم .. انه قديـــر سميع الدعـــاء ..

المقدمـــــــــــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الذى أرسله رحمة للعالمين ..

لقد حفل التاريخ الاسلامى المعاصر بأمثال رائعة من الدعاة حاولوا قدر اجتهادهم ابراز الجوانب المشرقة للدين الاسلامى الحنيف والقاء الضوء على القضايا المتجددة التى تعترض الناس فى حياتهم اليومية وما تختلط عليهم فى فهم شؤون دينهم الذى ارتضاه الله لهم .

لذا كان اختيارى للدكتور/ محمد عبد الله دراز من خلال جهوده فى الدعوة موضوعا لبحثى فى محاولة لايضاح ما حفلت به كتبه وبحوثه من آراء فلسفية يدحض بها المذاهب والآراء الفلسفية الأخرى بالاضافة الى عدم تطرق أى باحث من قبل لتوضيح جهوده من خلال مؤلفاته .

واختيارنا للدكتور دراز بالذات له مبرراته الفكرية والدعوية . أما من الناحية الفكرية فان الرجل قد هضم الفكر الغربى خاصة فى مجال الأديان كما أنه على دراية ثاقبة بدينه الاسلامى وعلى شعور قوي وتحمس شديد له .

وبالنسبة للناحية الدعوية فانه كتب ما كتب لا لمجرد الترف الفكري أو بحوث أملتها عليه ظروف معينة وانما بدا من كل سطر كتبه أنه داعية لحق ومدافع عن قضية ، فهو يدعو للدين الحق وهو الاسلام ويدافع عن

قضية الدين بصفة عامة أمام الذين ينكرون أساسا أو يحاولون تصوير الدين على أنه شئ مخترع والدليل على ما نقوله أمور ..

منها أنه تعرض للنظريات المتعددة التي عالجت نشأة الدين ومنها النظرية الكونية والنفسية والاجتماعية وغيرها من النظريات التي اعتبرت الدين تفسيرا للكون وصدا للجانب النفسي والاجتماعي ..

والرجل يدحض هذه النظريات بنفس المنهج الذى يستخدمه أربابها ويبطل النتائج التى توصلوا اليها طبقا لمعاييرهم ثم يلزمهم بنتائج هى حق فى نفسها وتعتمد على أدلة عقلية ونقلية قوية ..

فى البداية ينبغي أن نعلم أن كل انسان لا سيما اذا كان على درجة عالية من الثقافة والفكر يدعو الى الله بطريقته الخاصة ، ولا نطالب كل مفكر اسلامى أن يكون إماما وخطيبا أو واعظا ، ولا أن يتخذ من الوسائل كذا دون كذا بل ان الدعاة الذين يتحمسون للاسلام نشرا أو دفاعا لهم طرقهم ومناهجهم الخاصة ، ولهم أساليبهم المحددة ، وكل واحد يختط لنفسه ما يناسبه أو يلائم فكره وثقافته .

ولا يمكن أن نستبعد من مجال الدعوة أناسا شحذوا أذهانهم ، وابتكروا مناهج خاصة بهم ، وسخّروا أقلامهم لخدمة الاسلام لمجرد أنهم ليسوا دعاة تقليديين ، كلا ان المفهوم الصحيح للدعوة والدعاة هو ..

أن كل من يحاول اقناع الناس وهدايتهم وتبصيرهم بأمور دينهم نسميه داعية سواء سلك فى ذلك مسلك الوعظ أو مسلك التأليف

والنشـــــــــر .

وفارس هذا البحث داعية من الدعاة الذين امتازوا بقوة العبقرية ودقـة المنهج ووضوح الاسلام واختط لنفسه مجالا محددا فى الدعوة هو التأليـف والنشر والوعظ والارشاد ، ولذا سنعرض لدعوته من خلال كتبه وبحوثـــه التى كتبها عن الاسلام بيانا وشرحا وتعليقا بقدر المستطاع ..
ولقد بدا لنا من بين سطور مؤلفاته نمطا محددا حاول أن يرسمه ويتجلى فى توضيح الشخصية الانسانية المتدينة .

وسوف نركز على تلك الشخصية من حيث نظرة المرحوم الأستاذ الدكتـور محمد عبد الله دراز وذلك لأننا رأينا انتاجه يشكل نظرية عامة فى بنـــاء الانسان . وتبدأ هذه النظرية بالارتباط الوثيق بين الانسان والتديـــن واصالة تلك النزعة لدى هذا المخلوق وعدم تخليه عنها فى أي طور مـــن أطوار حياته .. كما تحدث عنها فى كتابـــه : " الدين " .

وينتقل المؤلف فى الجزء الثانى من بناء الشخصية ليتناول الاســــلام باعتباره الدين الوحيد القادر على تكوين الانسان منذ أن جاء والـــى يوم يرث اللــه الأرض ومن عليهـــــا .

وقد بدأ هذا الجزء الهام بالتكوين الدينى للانسان بالحديث عـــن الكتاب الكريم ووجوهه الاعجازية ودلالاته على النبوة .. وأثناء هذا الحديث

تناول مسائل العقيدة والشريعة بشكل تفصيلى حينا واجمالى حينا آخر .

وانتقل رحمه الله ليركز بعد ذلك فى مسألة التكوين الانسانى على المسألة الأخلاقية من وجهة النظر العامة والفكرية ومن وجهة النظر القرآنية.

ولم يفته فى النهاية أن يضع اللمسة الأخيرة فى هذا البناء الانسانى العظيم وهو بناء الانسان فى صورته الاجتماعية وعلاقاته .

وعلى الرغم من أن الأستاذ الكبير لم يصرح بأنه يريد أن يضع نظرية كاملة تبدأ من التدين بصفة عامة وتمر بأحقية الاسلام وعقيدته وتشريعه وأخلاقه ونظامه فى السيادة والحكم وانما نستطيع أن نلمس هذا الاتجاه عنده اذا ما وضعنا كتبه أمامنا وألقينا عليها نظرة فاحصة ، عندئذ نجد فكرة البناء بارزة على الصورة التى وضعنا لها خريطة العمل فى هذا البحث والتى تلى المقدمة مباشرة .

وبالنسبة للنمط الذى سنسير عليه هنا فسوف نهتم بأمور محددة :

١ - الرجوع الى فكر الأستاذ أولا .

٢ - الاهتمام بأبرز النتائج التى توصل اليها مع التحرى والتمحيص .

وقد واجهتني الصعوبات التالية في اعداد هذا البحث ..

١ - عمق الأفكار التي تناولها هذا الرجل .

٢ - المصطلحات العلمية التي استعملها في كتبه وبحوثه .

٣ - المنهج التحليلي العميق الذى يتحدث به .

٤ - تعرضه لأفكار فلسفية متعددة .

ورغم ذلك فقد حاولت جهدى أن أتعرض لأفكاره من خلال الفصول التالية .

ورتبت هذا البحث من هذه المقدمة وخمسة فصول وخاتمة .

الفصل الأول : اصالة النزعة الدينية

ويشتمل على : معنى الاصالة
أقدمية النزعة وفطريتها
عناصر الحالة الدينية
الدين يقتضى الخضوع

الفصل الثانى : الاسلام هو الدين الحق

ويشتمل على : تحديد المفهوم لكلمة " قرآن "
المصدر الأول لهذا الدين
الاعجاز فى القرآن
الوحى بين المعلم والمتلقى
أحقية الاسلام وعالميته

الفصل الثالث : العقيدة والشريعة فى الاسلام

ويشتمل على : عقيدة التوحيد جذورها وتطورها
العقيدة ومنهجها
دعوة الاسلام الى الطاعات
العملية " التشريع "

الفصل الرابع : الجانب الأخلاقى فى القرآن

ويشتمل على : الجانب النظرى
الجانب العملى
أو التطبيقى

الفصل الخامس : الجانب الاجتماعى فى الاسلام

ويشتمل على : تكريم الله للانسان
مشكلة الرق وكيف عالجها
الاسلام وفكرة المسئولية
المسؤولية الاجتماعية الكبرى

الخاتمة : خلاصة البحث

وثمة نقطة حقيقية وهي أننا سنعالج هذه المسائل من خلال أقوال المؤلف وفكره وبحوثه دون أن نتعرض لغير ذلك لأن البحث في شخصيته ودعوته من خلال مؤلفاته فسوف نركز عليها بصورة أولية ..

مدخـــــل

(((حياتــــــه ونشأتـــــــه)))

نشأته وتعليمه :

ولد الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله بقرية " محلة دياى " وهى واحدة من قرى محافظة كفر الشيخ بجمهورية مصر العربية عام ١٣١٢ هـ الموافق عام ١٨٩٤ ميلادية وهو من بيت عامر بالتقوى والصلاح . اذ كان والده الفاضل الشيخ عبد الله دراز شيخ المعهد الدينى بدمياط . ثم التحق فى عام ١٩٠٥م بمعهد الاسكندرية الدينى حيث حصل على الثانوية الأزهرية عام ١٩١٢م وعلى شهادة العالية عام ١٩١٦م - وفى عام ١٩٣٦م سافر الشيخ فى بعثة أزهرية الى فرنسا واشتغل فى التحضير لدرجة الدكتوراه حيث كتب رسالتين عن ..

" التعريف بالقرآن "

" الأخلاق فى القرآن "

نال بهما دكتوراه الدولة من جامعة السوربون بمرتبة الشرف الممتازة عام ١٩٤٧م .(١)

هذه حياته باختصار شديد ولسوف نعطى نبذة تفصيلية حول هذه الحياة تكون مرآة لحياته والظروف التى أحاطت بتكوين شخصيته فنقول ..

---

١ - راجع د / محمد عبد الله دراز " النبأ العظيم - نظرات جديدة فى القرآن "

الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م دار القلم الكويت ص٦

يستطيع الدارس لواقع الريف المصرى فى هذه الفترة من الزمن حين كان مولد الشيخ ونشأته ، أن يستخلص الكثير الذى يعتبر مفتاحا للتوصل الى سمات وصفات شخصية الشيخ ، وعونا على دراسة مسار حياته وعطائه الدينى المتميز ..

فلقد ولد الشيخ فى الريف حيث الطبيعة السخية والامتداد الزراعى الفسيح مما يشحذ ملكة التأمل بل ويكاد أن يدفع اليه دفعا ..

وفى الريف تسود الحياة الدينية التى تستمد قداستها من تراث دينى تحتفظ به الأجيال بالتواصل والانتقال جيلا بعد جيل .. كما تعتز به بل كثيرا ما تمزج الحقيقة بالخيال فى هذا التراث وتسكن فى وجدان الريفى ليعبر عنها بصور متعددة هى فى غالبها تعبير عن التقوى والصفاء والنقاء .

وفى الريف علاقات اجتماعية وأسرية وأخلاقيات وقيم سويّة وسلوك ملتزم ومبادئ مستمدة من الدين والتراث والعرف جميعها مما يزيد من ولاء الفرد لأسرته وعشيرته وبلده وقبل هذا وذاك لدينه ومسؤوليته الدينية والاجتماعية .

وفى الريف ـ فى ذلك الحين ـ تنتشر " الكتاتيب " التى تحفّظ الأولاد القرآن الكريم وتهيئهم لأمنية غالية هى الالتحاق بالأزهر الشريف المنارة الدينية ،التى تسعى كل أسرة الى الحصول على شرف الحاق أبنائها به .. فضلا عما يوفره حفظ القرآن الكريم وتفسيره من طلاقة فى اللغة وتمكن من أسبابها ومفاتيحها ..

وفى الريف ـ فى ذلك الحين وحتى الآن ـ نظرة حذرة متوجسة ....

الى الحضر باعتبار ساكنيه من معدن آخر لهم عاداتهم وتقاليدهم وقيمهم وسلوكهم الذى قد لا يرضى القروي عن الكثير منه حتى وان حكمت عليه الظروف بأن يعايشهم طلبا للعلم ..!!

وفى الريف انفاق دون بذخ ، وطاعة دون رضوخ ، وعزة نفس دون كبر ، وثقة بالنفس دون غرور ، وتوكّل على الله دون تواكل ، وصبر دون اغفال أو اهمال ..

فى هذا المناخ الريفي النقي ولد الشيخ عام ١٣١٢هـ الموافق عام ١٨٩٤م بقرية محلة دياى احدى قرى مركز دسوق محافظة كفر الشيخ حاليا وكانت سابقا احدى قرى مديرية الغربية " طنطا " وحفظ القرآن الكريم فى سن العاشرة من عمره كالكثير من أقرانه حتى يقبل بالمعهد الدينى ، الذى كان حفظ القرآن الكريم واحدا من شروط القبول به ، وكان يتطلّع الى " الأزهر الشريف " ويشكّل ذاته من خلال دراسته حتى التحق بمعهد الاسكندرية الدينى عام ١٩٠٥م .

ولما كانت مدينة الاسكندرية ليست مجرد حضر بل هى أيضا ميناء ، وفى الموانئ عادة تختلط أجناس وأجناس ، وتحتك حضارات بحضارات ، وتسود عادات وتقاليد مألوفة وغير مألوفة لمن كان مثل الشيخ ، وتتعاون عوامل كثيرة فى تحريك دوامات الانتشار الحضارى ، ويتعامل الناس بأسلوب يحتاج الى فسحة من الوقت للتكيف معه ، فلا شك أن الشيخ حين وفد الى الاسكندرية لاقى كثيرا من المعاناة بين القبول والرفض ،

والرغبة فى التعبير والصمت ، والتفكير بين ما كان وما هو كائن ، وان .. كل ذلك لا ينفي الحقيقة البدهية وهى أنه استفاد من اقامته بالاسكندرية بالاضافة الى تحصيل العلم ، ثقافة أوسع ، وادراكا أبعد ، ونبعا لمزيد من المعرفة لا ينضب وفرته مكتبات الاسكندرية ودور الكتب بها ، وتعوّدا على الاعتماد على النفس لم يكن متاحا له حين كان يعيش بين آله وذويه بالريف ، وظل كذلك حتى نال الشهادة الثانوية عام ١٩١٢م .

ولقد خرج الشيخ من مجتمع الاسكندرية ، لينفتح على المجتمع الأرحب والأوسع ، مجتمع القاهرة ، وحيث المزيد من المعرفة والثقافة والعلم ، وحيث الصراعات الفكرية والمذهبية ، وحيث " الأزهر " ذاته : " الغاية والأمنية " وحصل على الشهادة العالية عام ١٩١٦م وبعدها تأهل للدراسة العليا لينال درجة العالمية " دكتوراه " .

ولكن انشغال الشيخ فى دراسته للحصول على شهادة العالمية ، لم يمنعه من الاكتفاء بمؤهله بل تعلّم اللغة الفرنسية بمجهوده الخاص ، ولم يكن اقباله على تعلم هذه اللغة حبا فى المظهر ، بل ليستخدمها فيما يعود على قضية بلاده ودينه بالنفع ، فكان ابان ثورة ١٩١٩م يطوف مع الشباب على السفارات الأجنبية ليعرض قضية بلاده ودينه .(١)

---

١ - " النبأ العظيم - نظرات جديدة فى القرآن " مرجع سابق ص ٦

ولقد امتزجت الحضارة الغربية بالحضارة الشرقية حين وفد الشيخ مبتعثا على فرنسا وأقام بها منذ عام ١٩٣٦م للتحضير لدرجة الدكتوراه ، مما حقق له مزيدا من المعرفة ، واتساعا أرحب في مجال الرؤية ، والماما بمقاييس ومعايير جديدة للحكم على الأمور ، ووقوفا على أفكار تتصل بالاسلام وبالشرق عامة تتراوح بين الايجاب والسلب ، وثقافة جديدة تجتنى بالمعايشة ويصعب اجتناؤها بالاطلاع .

ولم ينتهج الشيخ الطريقة السهلة التى انتهجها غيره بالشروع في تحضير رسالة الدكتوراه فور وفوده على فرنسا ..

((بل فضل أن يسير في الطريق الأكاديمي من بدايته ، ويفعل ما يفعله طلاب العلم من الفرنسيين الذين يعدّون أنفسهم اعدادا أكاديميا رصينا ، فالتحق بالسوربون للتحضير لدرجة الليسانس ، ودرس الفلسفة ، والمنطق ، والأخلاق ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، على أيدى أساتذة السوربون والكوليج دى فرانس))[1]

---

١ - د / محمد عبد الله دراز " دستور الأخلاق في القرآن - دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن "
الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م تعريب وتحقيق وتعليق د / عبد الصبور شاهين ص (ح) التقديم .
الناشر / دار البحوث العلمية / بيروت / لبنان .

وهكذا كانت نشأة الشيخ وتعليمه :

ريفي المولد والنشأة ، شرقي الصفات والسمات
غزير المعرفة والعلم بين الشرق والغرب
متنوع الثقافة ، عميق الولاء لدينه وأمته.

ويعتبر الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز واحدا من أولئك العلماء الأفذاذ الذين عاشوا حياتهم داعين لدينهم ،مدافعين عنه ، فهو واحد من علماء الأزهر المرموقين الذين وهبوا أنفسهم للدعوة الى دين الله ، وكان الى جانب علمه وتقواه يتمتع بنفس ملهمة وروح شفافة وبصيرة نافذة . حفظ القرآن الكريم وله من العمر عشر سنوات . وتخرج من الجامعة الأزهرية وهو فى الثانية والعشرين ، ثقف نفسه عن طريق المدارس الليلية باللغة الفرنسية ، حتى أجادها اجادة تامة . وكأنه كان يعد نفسه لنشر رسالة الاسلام فى ديار الغرب . (١)

ولقد شغل الدكتور محمد عبد الله دراز مناصب عدة فعمل مدرسا وأستاذا " بالقسم العالى بالأزهر عام ١٩٢٨م " وبقسم التخصص

---

١ - د/ محمد عبد الله دراز " من خلق القرآن " تحقيق عبد الله الانصارى ص. (ب) المقدمة . من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية بقطر ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

عام ١٩٢٩م ، وبكلية أصول الدين عام ١٩٣٠م ، وانتدب اثـــر عودته الى مصر من فرنسا لتدريس تاريخ الأديان بجامعة القاهـــرة ، وحصل على عضوية هيئة كبار العلماء عام ١٩٤٩م ، ثم ندب لتدريـــس التفسير بكلية دار العلوم ، واللغة العربية بالأزهر ، وتدريس فلسفـــة الأخلاق فى كلية اللغة العربية .. وفى عام ١٩٥٣م أختير عضوا فـــى اللجنة العليا لسياسة التعليم كما أختير عضوا فى المجلس الأعلـــى للاذاعة ، الى جانب اختياره فى المؤتمرات الدولية والعلمية ممثـــلا لمصر والأزهر وفى اللجنة الاستشارية للثقافة بالأزهـــر " (١)

---

١ ـ النبأ العظيم مصدر سابق " التقديم "

دعوته :

لقد اختط الدكتور محمد عبد الله دراز لنفسه خطا دعويا واضحا في كل كلمة كتبها في كتبه أو بحوثه أو قالها في محاضراته أو ندواته أو عبر وسائل الاعلام .

وقد امتازت خطته الدعوية بسمتين رئيسيتين :

الأولى

ايضاح الجوانب المشرقة في الاسلام سواء في عقيدته وتشريعه وأخلاقه ومعاملاته أو تعامله مع أفراده عبر علاقاتهم الاجتماعية ..

والثانية

موجهة للفلاسفة والملحدين الماديين لدحض افتراءاتهم وكشف الطريق السوي لهم في تعامل الاسلام السمح ..

وأما مجالات تلك السمتين فهي طريق التأليف والمؤتمرات والاعلام ونظرا لأن مجال التأليف أوسع مجال عنده فسوف نركز البحث عليه .

وضوح الهدف في ذهنه :

لا ينكر أحد يدرس تلك الشخصية أنه قد حدد هدفه الواسع واستعد له منذ شبابه الأول . فلقد أقبل على القراءة والتثقيف والتحصيل العلمي بجدية كما أقبل على تعلم اللغة الفرنسية بنفسه قبل أن يدور بخلده أنه سيصير مبعوثا الى تلك الدولة فلماذا أجادها في البداية لو لم يكن قصد خدمة دينه وقضايا بلاده .

وبهذه الطريقة ، التحصيل العلمي ودراسة اللغة الفرنسية مع عبقرية فائقة كل هذا أتاح للرجل أن يكون داعية في الداخل والخارج .

ولقد كان على مستوى الهدف علما وتكوينا وعبقرية وأداء .

منهجه وعقيدته :

سلك الدكتور دراز في بيان العقائد منهج رجال السلف ، وذلك من ناحية الاعتماد على اللغة ، والكتاب والسنة والآثار ، ولم يهمل مع ذلك النظر العقلى ، وانما قلنا انه سلك طريق السلف في اثبات العقائد لأنه يصنع صنيعهم في استشارة الوضع اللغوى والركون اليه أولا ، وهذا الصنيع هو مستند السلفيين دائما ، نراه عند الامام أحمد في الرد على الجهمية وعند الدارمى ، والامام البخارى ، وأبرز من دافع عنه ابن قتيبة الدينورى ، ولا ننسى هنا أن رجال السلف واللغويين جعلوا اللغة مقابل المنطق وقواعده[1] ، وفي أى مسألة نجد ابن تيمية يركز على اللغة باهتمام بالغ .

ثم ان هؤلاء الرجال يسوقون النص القرآنى أو النبوى ويفهمونه في ضوء القواعد اللغوية والاحتكام الى قواعدها ، ومستعينين بما

---

١ - أنظر ..

- الامام أحمد بن حنبل " الرد على الزنادقة والجهمية " ٢٤١
- أبو عبد الله بن أبى الحسن اسماعيل البخارى" خلق أفعال العباد" ٢٥٦
- عبد الله بن مسلم بن قتيبة " الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية" ٢٧٦
- عثمان بن سعيد الدارمى " الرد على الجهمية " ٢٨٠

وكلها ضمن مجموع عقائد السلف جمع وتحقيق د /على سامى النشار وآخرين مصر ١٣٩١هـ / ١٩٧١م

هو مروى عن الصحابة والتابعين وتابعيهم ، ولم يفتهم أن يستعملوا عقولهم فى كل ذلك استعمالا يخدم النص ولا يشذ عن منطوقه ومضمونه ، ولا يخالف أهل السنة والجماعة ، أو ينحرف عن الضوابط اللغوية ، ونفس تلك الطريقة هى التى اتبعها فارس هذا البحث .

لقد سار على نفس المنوال ، ووصل بهذا المنهج الى نفس النتائج التى اتفق عليها رجال السلف وحارب من حاربوا من الفرق ، وخالف من خالفوا منهم ، فنقض رأى الأشعرية ، والمعتزلة ، والجهمية ، والمرجئة ، والخوارج وغيرهم ، وناقشهم بعقلية حصيفة ، وبين أنهم جانبوا النص القرآنى ، وانحرفوا عن الثابت من السنة كما تأثر بمنهج التحليل والتركيب واستخراج النتائج ، واهتم جيدا بصياغة مقدماته وتحليلها فى ضوء الحوادث التاريخية والوقائع تحليلا بارعا وصعد منها الى النتائج بمقدرة فائقة ، إن من يقرأ كتبه لا يتصور أنه يتجول فى مؤلفات نظرية بل يخيل اليه حينا أنه يصعد من مقدمات رياضية إلى نتائجها المسلمة ضرورة ، كل ذلك يتم فى صورة منطقية متدرجة بلا أى زيادة يقود بها القرئ الى النتائج التى يستخلصها فى يسر وسهولة ، ولو لم يصرح بالنتيجة لاستخرجها القارئ بلا عناء وبلا مشقة ، ودل أسلوبه وتفكيره على هضم دقيق للفكرة التى يكتبها بالاضافة إلى أنه يملك ناصية البيان العذب ..

ونستطيع أن نتبين هذا المنهج بوضوح من خلال بعض نظراته

ونخص من بينهما فكرته عن الايمان والاسلام من ناحية المفهوم ، وشمول كل منهما للآخر أو عدم شموله ، وزيادة الايمان ونقصانه .

الطريقة والعقيدة من خلال التطبيق :

اتضحت طريقته ومنهجه وسلفيته في كتابه : " المختار من كنوز السنة النبوية " عندما تعرض لموضوع الايمان والاسلام : مفهومهما وعلاقتهما .

نجده يبدأ أولا ببيان معنى الكلمتين في اللغة قبل تحديد معناهما في لسان الشرع ، فيقرر أن كلمة الايمان في لغة العرب تستعمل استعمالان : لأنها تارة تتعدى بنفسها فيكون معناها التأمين أي إعطاء الأمان قال تعالى " وآمنهم من خوف "(١) ومنه إسم الله تعالى " المؤمن " لأنه أمّن عباده من أن يظلمهم ، وتارة تتعدى بالباء أو اللام فيكون معناها التصديق " قولوا آمنا بالله "(٢) أو " أفتطمعون أن يؤمنوا لكم "(٢)

والمعنيان يرجعان إلى المعنى الأول لأن من صدقك فقد أمّنك من التكذيب والمخالفة (٣) .

---

١ - سورة قريش آية (٤)

٢ - سورة البقرة آية (١٣٦) ... سورة البقرة آية ٧٥

٣ - المختار " من كنوز السنة النبوية " ٦٩-٧٢ طبع على نفقة صاحب السمو الشيخ /خليفة بن حمد آل ثاني حاكم قطر مراجعة الشيخ /عبد الله ابراهيم الأنصاري وطبع بمطابع قطر الوطنية الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م

والاسلام هو الآخر يكون متعديا فيستعمل بمعنى التسليم أى الاعطاء ، ويكون لازما بمعنى الانقياد والدخول فى السلم أى الاستسلام ، ومعناه لازما يرجع الى معناه متعديا لأن من انقاد واستسلم للغير فقد سلم اليه نفسه وألقى اليه مقاليده .

والشرع اذ يستعمل اللفظتين يستعملهما غير متعدين ، فيستخدم الايمان بمعنى التصديق ، والاسلام إن كان اعترافا وإقرارا فهو تصديق باعتباره ترجمة لذلك التصديق القلبى ، وإن كان إنقيادا باطنيا فالانقياد يشمل التصديق والرضا والمحبة والنية وغير ذلك من الأعمال القلبية ، والانقياد الظاهرى يتناول الاعتراف باللسان والخدمة بالجوارح والوقوف عند الحدود ، وعلى هذا فمعنى الاسلام بلغة أعم من الايمان عموما مطلقا .

وبعد أن بين المعنى اللغوى لكل من اللفظتين انتقل الى استعمالهما فى القرآن الكريم ، فيذكر لنا ملخصا عن السياق القرآنى وأن اللفظتين يردان فيه بمعنى التصديق ، أو مطلق الانقياد ، وقد يراد بالايمان تصديق خاص بخبر السماء المنزل على الأنبياء ، ويراد من الاسلام خصوص الانقياد لله رب العالمين ، ثم يضع ضابطا للاطلاق والخصوص فيقول ..

((وضابط الأمر فى ذلك أن ننظر فى الموضع الذى يذكر فيه أحدهما : هل له فى الكلام متعلق تعدى هو اليه بالباء أو اللام ، أم ذكر محررا عن المتعلق ؟)) (١)

---

١ - المختار " مصدر سابق " ٧٢

فان ذكر متعلقا بشئ انصرف إلى مطلق التصديق والانقياد ، وإن ذكرا بدون متعلق فالمراد بهما التصديق والانقياد الشرعيين .

ويريد الأستاذ الجليل أن ينتقل بنا الى نقطة هامة هى تحديد المفهوم لكلمة ايمان ، وهل يعنى التصديق القلبى وحده كما هو فى اللغة ، أو يشمله مع النطق والعمل ؟

وللاجابة على هذا ولتوضيحه يعمد إلى مذاهب العلماء فى المراد من كلمة دين باعتبار الاعتقاد أو النطق العمل ، فيستعرض رأى الكرامية القائلين أنه الاعتراف باللسان ولو بلا عمل ، والمرجئة القائلين أنه قول واعتقاد ، والخوارج الذين يرون أنه عمل للطاعات ، ومن أخل بها أو بواحدة منها خرج من الايمان ودخل فى الكفر واستحق الخلود فى النار ، ثم وجهة نظر المعتزلة الرامية إلى أن الدين عمل الواجبات ، ومن أخلّ بالعمل فقد خرج من الايمان ووجب تخليده فى النار كالكفار لكنه لايسمى كافرا فهو فى منزلة بين المنزلتين .

وإنه ليفند هذه الآراء كلها ، فيذكر أن قول الكرامية بعدم اشتراط الأعمال من السخف والبطلان بحيث تأباه بديهة العقل فضلا عن صريح النقل ، ويسوق على بطلانهم كثيرا من النصوص التى تكفر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه ((إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار))(١) ويرى أن اتفاقهم مع المرجئة بعدم دخول

---

١ - سورة النساء آية (١٤٥)

الأعمال هو مجرد أمانى ، وهى أمنية مخدوع ليس الا ((ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به))(١)

وبرد وجهة النظر القائلة بأن العمل من صميم العقيدة محتجا بأن القرآن فرق بين العاصى والجاحد ، وجعل لكل منهما جزاء ومعاملة (٢) تخصه ، ودلل على كل كلمة يقولها من الكتاب والسنة ، وبنفس تلك الطريقة رد قول المعتزلة ، وساق فى الرد عليهم بجانب الكتاب والسنة أقوال السلف كابن عمر والبخارى وغيرهما ثم انتهى إلى نقض الفرق جملة ، وذكر أنها تعلقت بنصوص وتركت أخرى ، وفى النهاية يقرر أن أراءها متطرفة ، وأن العقائد المتطرفة لا يمكن أن يصلح عليها أمر الخلق ، ولا يقوم بها نظام العالم والفهم الصحيح هو ما نجده عند أهل السنة والجماعة ، ثم يقول بالحرف الواحد ..

((قال أهل السنة والجماعة وهم جمهور الأمة وجميع الصحابة وكافة الأئمة : المطلوب من المكلف أمر مركب من قول واعتقاد وعمل))(٣)

وهكذا يسير مع النزعة السلفية إلى أبعد الحدود ، ويذهب مع ابن تيمية الى أن الايمان والاسلام (إذا احتما افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا) أى أنهما إذا اجتمعا فى عبارة واحدة افترقا مفهوما ،

---

١ - سورة النساء آية (١٢٣)

٢ - أنظر المختار " مصدر سابق " ٧٧

٣ - المختار " مصدر سابق " ٨٥

واذا ذكر أحدهما دون الآخر صار جامعا ، وعنده كما عند أهـــل السنة والجماعة أن الايمان يزيد وينقص لا كما يقول الأشاعرة من أنــه لا يتحمل الزيادة والنقصان .

ولا نبالغ بعد ذلك اذا قلنا أن الرجل سلفى المنهج والعقيدة والنتيجة ، ويمكن أن نلمس ذلك من كل عبارة يقولها طوال البحوث الجيدة التى ساقها فى كتابه المختار على امتداد صفحات طويلة وعميقة وبالتالى فهو صاحب منهج قويم وعقيدة صحيحة .

وفـــاتـــه :

توفــى المرحــوم الدكتور محمد عبد الله دراز عشيــة يـــوم الاثنــين السادس من شهر جمادى الثانيــة عام ١٣٧٧هـ الموافـــق السادس من شهر يناير عام ١٩٥٨م بمدينــة " لاهور " بباكستـــان وذلك أثناء حضوره المؤتمر الاسلامــى هناك ، وبعــد أن ألقـــى بحثـــا عـــن ..

((موقف الاسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها))

ولقد عاش الرجــل فــى الشــرق والغــرب ، فلــم ينخدع بزيـــف الحياة الغربية ، ولم ينبهــر بباريس الغانيــة ، ووهـــب حياتـــه كلهـــا مـــن أجـــل دينـــه والدفـاع عنـــه ، فكان الداعيـــة الملتزم ، والعالــم المــبرز ، والانســان المتواضــع حـــتى ليصـــح فيـــه قول الشيـخ كامل الفقـــى الذى رثاه بقولـــه ..

((يامن عشت فى اللهب ولم تحترق)) (١)

رحمـــه اللـــه ..

---

١ - من خلق القرآن " مصدر سابق "

مؤلفـــاتـــه :

تشتمل أعمال الدكتور دراز على مجموعة قيمة من الكتب والبحـــوث أبرزهـــا .. (١)

أولا : الكتـــب

١ - من خلـــق القـــرآن
دراسة مقارنة للأخلاق النظريـــة في القرآن .
من مطبوعات ادارة الشؤون الدينية بدولة قطر ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م
تحقيق الشيخ / عبد اللـــه ابراهـــيم الانصـــاري .

٢ - دراســـات اسلاميـــة
فـــى العلاقات الاجتماعيـــة والدوليـــة
دار القلـــم بالكويـــت
١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

---

١ - النبأ العظيم " مصدر سابق "

٣ - الديـــــــــــن	بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان دار القلم بالكويت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م
٤ - المختـــــــــــار	" من كنـــوز السنـــة النبويـــة " طبع على نفقة صاحب السمو الشيخ / خليفة بن حمد آل ثانى حاكم قطـر الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م مراجعة الشيخ / عبد الله ابراهيم الانصارى وطبع بمطابع قطر الوطنية.
٥ - دستور الأخلاق فى القرآن	الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م دار البحوث العلمية / الكويت -
٦ - النبـــــأ العظـــــيم	نظرات جديدة فى القـــرآن .. الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م
٧ - مدخل الى القرآن الكريم	عرض تاريخي وتحليل مقــــــارن ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م دار القلـــم بالكويـــــت .

ثانيا : البحــــوث :

١ - أصــــل الاســــلام .

٢ - الربا فى نظر القانون الاسلامـــي .

٣ - مبادئ القانون الدولى العام فى الاسلام .

٤ - رأى الاســـلام فـــى القتـــال .

٥ - العبادات : الصلاة ، الزكاة ، الصوم ، الحج .

٦ - بين المثاليـــة والواقعيـــة .

٧ - المسؤوليـــة فـــى الاســـلام .

٨ - الأزهـــر الجامعـــة القديمة والحديثـــة .

٩ - كلمـــات فـــى مبادئ الفلسفـــة والأخـــلاق .

١٠- مجموعة أحاديث اذاعية فى الدين والأخلاق (وثيابك فطهر)

ولا شك فى أن الرجل كان موسوعة اسلامية كاملة ، تعمل فـــى محيطها ودائرتها بجانب ما أصدرت من مؤلفات .. ومن ثم فليس مـــن الانصاف حين التعرض لعطاء الرجل أن نذكر مجرد ما نشر مـــــن مؤلفاتـــه .

ولما قلنا سلفا أن الرجل كان داعية من طراز فريد وأن مجالـــه الدعوي هو التأليف والوعظ وأنه قد حاول صياغة نظرية جديدة تبــدأ من ضرورة الدين للانسان ، وأن الاسلام هو الدين الحق ، وأنـــه عقيدة وشريعة وأخلاق وعلاقات ، وكل ذلك تجلية لموقف الاسلام مـــن تلك المسائل لذا سنعرض الدكتور دراز باعتباره داعية من خـــــلال مؤلفاته ومن خلال نظرته الدينية والاسلاميـــة .

ولنثق أننا بازاء داعية يعيش لدعوته فى كل سطر من سطور كتبـــه وبحوثه ، وأن ما فعله يعجز عنه جيش من الخطباء التقليديين .

وأكرر أنـــه ليس المهم أن يكون الداعية واقفا على المنبر بـــل الداعية فارس ميدانه سواء فى الخطابة أو التأليف أو فى النـــدوات والمحافـــل .

ولقد كان كذلك الدكتور محمد عبد الله دراز وهذا فكره الدعوي الأصيل فى فصول متوالية تشكل نظرية فى الحياة .

وأدق عبارة يمكن أن نصف بها جهاده فى دعوته لخدمة الاســـلام هى أنه اهتم بأصول الدعوة من ناحية العقيدة والأخلاق والعلاقـــات الاجتماعيـــــة .

فحديثنا عن دعوته هو حديث عن تلك الأصول الدعوية الهامــــة ، وارساء الأصول وتجليتها من خلال النظرة الاسلامية هو فى الحقيقـــة دعوة قوية لا تحتاج الى نقاش .

الفصـــــل الأول

=========

اصالــــــة النزعــــــة الدينيـة

معـــنى الاصالـــــــــــة . أقدمية النزعة وفطريتهـا
عناصر الحالة الدينيـــــة . الدين يقتضى الخضــوع

....

تمهيـــــد :

في ضوء نظرته وبين عالم ملـيء بالأفكار والتيـارات وعقب عـــودة الدكتور محمد عبد الله دراز من أوربا حيث العداء المحتدم بـــين العقل والدين ، والعلم والدين ، يبدأ فورا في ايضاح الدين بشكل عام وبيان أنه نزعة أصيلة وفطرية في الانسان والناس اذ يتدينون لا .. يهرفون ولا يأتون بالخرافات كما يشيع العلمانيون في الغرب ولكنهـــم يلبون نداء ذاتيا من الأعماق .

هذه أول خطوة على الطريق يريد تثبيتها داعيتنا الثاقب لينطلـــق منها الى الدين الحق ثم بعد ذلك يعود الى أصول هذا الديـــن ودعوته والأخلاق التي ينادى بها والعلاقات التي يتعامل بها أفراده .

اننا الآن ازاء داعية يضع حجر الأساس في بنائه الدعوي ليقـــيم صرح البناء عاليا منطلقا من الدين الحق ، وقائما على عقيدته وشريعته وأخلاقه وعلاقاته ، وذلك لينير الطريق أمام الانسانية كي ترى الحـــق ببرهان قوى واستدلال دقيق ، والرجل داعية يخاطب المثقفـــين الممتازين ودعاة العلمانية وأبواق التيارات الشاردة ومن ثم يبدو دائمـا في منتهى الدقة والموضوعية والمنهجية ويبدو دارسا متعمقا ليقنع ويفحـم عن جدارة ..

المبحث الأول :

معنى الاصالة

::

ضرورة الكشف عن العناصر المشتركة بين الأديان :

ان دراسة الأديان أيا كانت تحتاج في نظر الدكتور دراز ((أن يوفر الباحث همته قبل كل شيئ على تعرف المعنى الكلي الذي يجمعها والقدر المشترك الذى تنطوي عليه في جملتها ، اذ أنه من الواضح انه وان تفاوتت الأديان نفسها ، أو في مصادرها ، أو في أهدافها ، أو في قيمها ، فانها كلها يجمعها اسم " الدين " فلا بد أن تكون هناك وحدة معنوية تنظمها ، ويعبر عنها بهذا الاسم المشترك)) (١)

وهذه حقيقة فان الأديان تشترك في المفهوم العام ، كما تشترك .. في العناصر الأساسية مثل وجود خاضع ومخضوع له ، أو قوة عليا وقوة دنيا تعين الذات المقدسة ، وفي الغالب يؤمنون بأن الحياة وسيلة لحياة أخرى ..

---

١ - كتاب الدين "مصدر سابق" ص ٢٨

دلالة كلمة دين من جهة اللغة :

يشكو هذا المفكر من المعاجم حين نلجأ اليها لتعطينا شيئا عن كلمة ما فنجدها تحيلنا الى العرف ، وأنها تتشعب فى الكلمات وبنوح باللائمة عليها لذلك ، ولكن الحقيقة أن اللغة تشير الى أن بعض الألفاظ معروفة اعتمادا على شيوع الكلمة ومعرفتها ، وقد بينت المعاجم استعمالات الكلمة فى اللسان العربى ولذا كثر ورودها بعدة معان ، وترتيب المعانى سهل ميسر ، ولا تخلو المعاجم من بيان جذر الكلمة ، وأنه فى هذه المادة التى تحت أيدينا يقول الدكتور دراز ..

((والواقع أننا اذا نظرنا فى اشتقاق هذه الكلمة ووجوه تعريفها نرى من وراء هذا الاختلاف الظاهر تقاربا شديدا ، بل صلة تامة فى جوهر المعنى)) (١)

وينتهى الى أن الكلمة تكون متعدية بنفسها فيقال دانه يدينه ، وتارة تتعدى باللام مثل ـ دان له ـ أو بالباء ـ دان به ـ فاذا قلنا ـ دانه دينا ـ فمعناه أنه ملكه وحكمه وساسه ودبره وقهره وحاسبه وقضى فى شأنه (٢) ، فالكلمة هنا تدور على معنى الملك والتصرف بما هو من شأن الذين يملكون ذلك ، وفى القرآن الكريم ـ مالك يوم الدين ـ (٣)

---

١ ـ كتاب الدين " مصدر سابق " ص ٣٠
٢ ـ لسان العرب المجلد الثالث عشر بيروت ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م ١٦٦-١٧١
٣ ـ سورة الفاتحة

وفى الحديث ـ الكيس من دان نفسه ـ (١) أى حكمها وضبطها والديان الحكم القاضى .

واذا تعدت باللام فقيل ـ دان له ـ فمعنى ذلك أنه أطاعه وخضع له ، فكلمة دين تعنى الخضوع والطاعة والعبادة والورع .

واذا قلنا دان بالشئ صار معناه أنه اتخذه دينا ومذهبا واعتقده وتخلق به ، وكلمة دين على هذا يقصد بها المذهب الذى يسير عليه المرء نظريا وعمليا . النظري كالعقيدة والفكرة ، والعملي كالعادة والسيرة . (٢)

((وجملة القول فى هذه المعانى اللغوية أن كلمة الدين عند العرب تشير الى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له ، فاذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعا وانقيادا ـ واذا وصف بها الطرف الثانى كانت أمرا وسلطانا . وحكما والزاما . واذا نظر بها الى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هى الدستور المنظم لتلك العلاقة ، أو المظهر الذى يعبر عنها .

---

١ ـ سنن ابن ماجة الجزء الثانى (٣١) باب (٤٢٥٩-٤٢٦٢)حديث

٢ ـ د / ابراهيم أنيس المعجم الوسيط ح ١ صفحة ٣٠٥

د / عبد الحليم منتصر طبعته احياء التراث الاسلامى قطر ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .

مجد الدين محمد يعقوب الفيروزابادى : القاموس المحيط ج ٣ ، ٤ صفحة ٢٢٧ الطبعة الثانية ١٣٧١هـ/١٩٥٢م شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى وأولاده بمصر .

ونستطيع الآن أن نقول أن المادة كلها تدور على معنى لـــزوم .. الانقياد ، وفي الاستعمال الثاني هو التزام الانقياد وفي الاستعمـــال الثالث هو المبدأ الذي يلتزم الانقياد له .)) (١)

وينبغي أن نفرق بين الالزام في كلمة " دين " بفتح الدال الـتي تعني الزاما ماليا وكلمة " دين " بالكسر التي تقتضي الزاما أدبيـــا وعقائديا ، ومرجعنا في هذا الفرق كما نرى هو اللغة نفسها وقـــد عودتنا ((أنها حين تريد التفرقة بين الحسيات والمعنويات من جنـــس واحد قد تكتفي بتغيير يسير في شكل الكلمة مع ابقاء مادتهـــا)) (٢) كما في كلمة ـ الخلق ـ بفتح الخاء ـ والخلق ـ بضم الخاء ـ والرأية ـ ـ والرؤيا ـ .

ان الدكتور دراز بعد أن هجم على معاجم اللغة كما رأينـــا سلفا عاد هنا يأخذ كل أنكاره عن الكلمة وغيرها من معاجم اللغـــة ولم يجد أمامه سواها لمعرفة المقصود من دلالة الكلمة واعتبر المعاجـــم على ما وجهه اليها من نقود هي المصدر الأساسي في معرفة الكلمـــات وفي الحكم عليها من جهة الاصالة .

لذا نراه يقول هنا بعد ذلك بالحرف الواحد ..

((وهكذا يظهر لنا جليا أن هذه المادة بكل معانيها أصيلة فـــي

---

١ ـ كتاب الدين " مصدر سابق " ص ٣١

٢ ـ كتاب الدين " مصدر سابق " ص ٣٢

اللغة العربية ، وأن ما ظنه بعض المستشرقين - من أنها دخيلة معربة عن العبرية أو الفارسية في كل استعمالاتها أو في أكثرها بعيد كل البعد ، ولعلها نزعة شعوبية تريد تجريد العرب من كل فضيلة ، حتى فضيلة البيان التي هي أعز مفاخرهم)) . (١)

وأخيرا فان الذى يعنينا من الاستعمالات السابقة للكلمة الاستعمال الذى يقصد به الطاعة والخضوع والذى تتعدى فيه الكلمة باللام ، وأيضا الاستعمال الذى تتعدى فيه بالباء ويصير معناها الدين والمذهب ، ومن خلال الاستعمالين معا نصل الى المعنى الذى تستخدم به كلمة دين في تاريخ الأديان ، هذا المعنى الذى يعتبر حالة نفسية لدى صاحبه نسميها بالتدين ويتصل بالخضوع والانقياد بحقيقة خارجية يمكن الرجوع اليها في مظاهر الانقياد وجملة المبادئ التي ندين بها ، وعلى الرغم من أن الأصول اللغوية للكلمة قد أفادتنا كثيرا في تحديد معانيها الا أنها لم تصل بنا الى المعنى المعروف والمصطلح عليه بين الناس لكلمة دين ، ويلزم لتحديد هذا المصطلح أن نترك مجال اللغة لنأتي الى مفاهيم أخرى تحدد لنا الكلمة من خلال الخصائص والعناصر الأساسية المشتملة عليها . (٢)

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ص ٣٢

٢ - أنظر دائرة المعارف الاسلامية مادة " دين "

ودائرة معارف القرن العشرين (محمد فريد وجدى) مادة دين أيضا .

لا ننسى أن الدكتور دراز رجل متدين وأنه يسلك في بحوثه طريقة العالم المجد الذى يريد أن يقنع الناس من كل جانب وبكل وسيلة بالفكرة التى يراها حقا وصادرة من أساس دينى سليم ، وكان بامكانه أن يسلك طريقا سهلا في دعوته الى بيان النزعة الدينية واصالتها ولكنه سلك طريقا وعرا ارتاده هو ونقب فيه بفكروبدا عميقا فى تحليله دقيقا فى أحكامه حتى وهو يتناول كلمة دين من جهة اللغة ، أنه داعية يريد أن يغرس الفكرة فى أذهان الناس بمنهج تحليلى يقوم على اللغة وعلى استقراء التاريخ وأحوال المجتمعات ، وقبل كل شئ البحث فى اللغة التى يكتب بها فكره . لم يدلل على ما يريد بالنصوص الدينية ويدع الآخرين يقبلون أو لا يقبلون ولكنه حريص كل الحرص على أن يستميل كل الناس نحو فكرته والى دعوته فسلك منهج التحليل العميق ليقنع جمهور الباحثين والمثقفين ولقد أشرنا الى ذلك سلفا .

التعريـــف الاصطلاحـــى :

بادئ ذي بدء ينبغي أن نعرف قبل الخوض فى التعريفات الــتى ساقها الدكتور دراز أن تعريف الدين يخضع لاتجاه أصحابه وللنظـــرة الأساسية التى ينظرون بها الى حقيقة الدين واصالته ، فمنهم مـــن يقر بذلك ويعتبر الدين شيئا أساسيا وحقيقة قائمة ومنهم من يـــراه شيئا مفتعلا وخرافة مبتدعة ، وطبقا لتعدد النظرات فقد تعـــددت التعريفات ..

وعلى سبيل المثال فالاسلاميون ((قد اشتهر عندهم تعريــــف الدين بأنه " وضع إلهي لا وضع بشرى وذلك لأن المسلمين نظـــروا الى الدين على أنه واحد وأنه الاسلام وأنه من الله منذ أن أرســـل الأنبياء مع بدء أول انسان "، ويمكن تلخيصه بأن نقول :
الدين . وضع الهي يرشد الى الحق فى الاعتقادات ."))[1]

والغربيون أتوا بتعريفات شتى حسب اختلافهم حول مصدر الديـــن هل هو من الله أو من اختراع البشر ، وحسب غايته هل يحـــل مشاكل الوجود أم لا .

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ص ٣٣

— فيرى سيسرون ، فى كتابه " عن القوانين " ((الدين هـو الرباط الذى يصل الانسان بالله)) (١)

— ويقول كانت فى كتابه " الدين فى حدود العقل " : ((الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر الهية))(٢)

— ويقول شلاير ماخر ، فى " مقالات عن الديانة " ((قـوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة))(٣)

— ويقول الأب شاتل ، فى كتاب " قانون الانسانية " : ((الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق ، واجبات الانسان نحو الله ، وواجباته نحو الجماعة ، وواجباته نحو نفسه))(٤)

— ويقول روبرت سبنسر ، فى خاتمة كتاب " المبادئ الأوليـة " ((الايمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ولا المكانيـة هو العنصر الأساسى فى الدين))(٥)

— ويقول تايلور ، فى كتاب " المدنيات البدائية " ((الديـن هو الايمان بكائنات روحيـة))(٦)

— ويقول ماكس ميلر ، فى كتاب " نشأة الدين ونموه " ((الديـن هو محاولة تصور ما لا يمكن تصوره ، والتعبير عما لا يمكـن التعبير عنه ، هو التطلع إلى اللانهائى ، هو حب الله))(٧)

— ويقول اميل برنوف ، فى " علم الديانات " ((الديـن هـو العبادة ، والعبادة عمل مزدوج ، فهى عمل عقلى به يعـترف الانسان بقوة سامية . وعمل قلبى أو انعطاف محبة ، يتوجه بـه

١ - ٧ كتاب الدين " مصدر سابق " ص ٣٤

إلى رحمة تلك القوة)) (١)

— ويقول ريفيل في " مقدمة تاريخ الأديان " ((الدين هو توجيه الانسان سلوكه ، وفقا لشعوره بصلة بين روحه وبين روح خفية يعترف لها بالسلطان عليه وعلى سائر العالم . ويطيب له أن يشعر باتصاله بها))(٢)

— ويقول جويوه ، في كتاب " لا دينية المستقبل " ((الديانة هي تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الانسانية ، والشعور الديني هو الشعور بتبعيتنا لمشيئات أخرى يركزها الانسان البدائي في الكون .))(٣)

— ويقول ميشيل مابير ، في كتاب " تعاليم خلقية ودينية " ((الدين هو جملة العقائد والوصايا التي يجب أن توجهنا في سلوكنا مع الله ، ومع الناس وفي حق أنفسنا))(٤)

— ويقول سلفان بيريسيه ، في كتاب " العلم والديانات " ((الدين هو الجانب المثالي في الحياة الانسانية)) (٥)

— ويقول سالومون ريناك ، في " التاريخ العام للديانات " ((الدين هو مجموعة التورعات التي تقف حاجزا أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا))(٦)

— وقول اميل دوركايم . في " الصورة الأولية للحياة الدينية "

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ص ٣٤

٢ - ٦ كتاب الدين " مصدر سابق " ٣٥ ، ٣٦

((الدين مجموعة متساندة في الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة " أي المعزولة المحرمة " اعتقادات وأعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة))[1]

من هذه التعريفات يتضح لنا :-

أولا :
=====

إن الدين ليس اعتقادا فحسب وإنما هو اعتقاد تضاف إليه قيود أخرى يحددها كل عالم من وجهة نظره مثل الاشارة إلى مصدر الدين وهو الله أو الشعور النفسي العارم في حالة التدين ، أو العاطفة والحب ، أو القيام بتكاليف وطاعات عملية وسلوكية أخلاقية مع التفكير والتأمل العقليين .

ثانيا :
=====

لقد حصرت هذه التعريفات الدين في حدود الأديان السماوية الصحيحة التي تتخذ معبودا واحدا ، وأهملت الديانة الطبيعية والخرافية .

ثالثا :
=====

ثم ان بعض هذه التعريفات خاصة تعريف روبرت سبنسر

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ص ٣٦

قد حصر الدين فى عقيدة كبار الفلاسفة الذين يؤمنـــون بقوة لا يمكن تصورها زمانيا ولا مكانيا ، ومثل هـــذه التعريفات لا ينطبق على الفرد بأن المشبهة والمجسمة مــع أنها معدودة بين الأديان .

رابعـــا :

=====

من بين أصحاب التعريفات من قصر الدين على الأديـان التي تفصل بين العقيدة والعقل فصلا تاما ، ولا سيما المسيحيـــة ، وليس هذا بالدين الشامل الذى ينضوي تحته الاسلام مثـــلا ، هذا الدين الذى يجعل للعقل نصيبا فى فهم العقيـــدة والدفاع عنهـــا .

خامســا :

=====

وهناك تعريفات تستبعد الألوهية من المفهوم الحقيقى للديـن مستندين إلى أن هناك أديان أخلاقية بحتة تخلو من فكـــرة الاعتقاد فى الألوهية مثل البوذية وقد تبنى هذا دوركايـــم وريناك .

سادسا :

=====

ومن وجهة نظر الدكتور دراز لا يرى ما يراه دوركايم وزميلـــه وانما يوضح وهو محق أن الدين لا يسمى دينا الا اذا كانت

له فكرة عن الألوهية . وعلاقة الانسان ، وله نظرة في المصير الانساني ، وهذه الأديان المشار اليها كالبوذية وغيرها هي كذلك ، وإلا لما تسمى أديانا ((اننا لا نبالغ اذا قلنا أن كل مذهب يخلو من هذه الدينونة هو أحق باسم " الفلسفة الجافة " منه باسم آخر . وأكبر الظن عندنا أن الديانات المذكورة " البوذية والكونفوشيوسية ونحوهما " ما استحقت أن تدرج في جدول الأديان إلا منذ دخلتها فكرة التأليه ، أو على اعتبار أنها كانت كذلك أبدا .

وبالجملة فنحن لا نوافق على حذف مبدأ الألوهية من تعريف الأديان ، بل نذهب الى القول مع الفيلسوف الألماني " أرنست شلاير ماخر " بأن قوام حقيقة الدين هو ذلك الشعور بالحاجة والتبعية المطلقة لقوة قاهرة ، فلا ريب أن هذا الشعور ركن أصيل لا بد منه في تحقيق ماهيته من حيث هو .

ولكنه مع ذلك لا يحتوي كل العناصر التي يتألف منها هذا المفهوم اذ لو كان كل شعور بالخضوع الكلي والتبعية المطلقة لقوة قاهرة أيا كانت - وأيا كان لون الخضوع لها ، يسمى دينا . لكان أحق الضرورات بهذا الاسم حاجتنا إلى التنفس والغذاء . واستسلامنا التام لقوانين النقل والجاذبية وسائر العوامل الكونية ، ولا قائل بذلك))(١)

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ص ٤٠

سابعـــا :

=====

ونشم من كلام الدكتور دراز أنه يركز على فكرة الألوهيـــــــة وكونها معتبرة في كل دين واعتبارها ليس تطورا من شـــــيء وإنما هو مغروس في الفطرة ، وبالتالي فالأديان قديمـــــة فطريـــة لا تطوريـــة حادثـــة وإلى مزيد لتلك النقطـــة في المبحث القـــادم ..

المبحث الثاني :

أقدمية النزعة وفطريتها

إلى أي حد تعد ظاهرة التدين ظاهرة عريقة فى القدم ؟ هل سبقت الحضارات المادية ؟ أم تأخرت عنها فى الوجود ؟ أم اقترنت بها ؟

هناك رأيان يفسران نشأة الأديان أحدهما صادر من دعاة الدين مخدر ، ومن الذين كان لهم رد فعل تجاه أخطاء الكنيسة ورجالها وتجاه العقائد المسيحية التى لا تخضع لمنطق العقل .. والآخر نابع من الذين يقرون بوجود الأديان حقيقة ..
وسوف نشير الى الرأيين معا ..

النظرة الأولى : اختراع الأديان

يرى بعض كتاب القرن الثامن عشر من أمثال فولتير وجان جاك روسو وغيرهما أن الانسانية عاشت دهرا طويلا لا تعرف سوى الحرث والنحت والبناء والحدادة والنجارة وانغمست فى المادية ، ثم فكر دعاة ماكرون فى الأديان وانصاع لهم العامة أو أنه عندما سادة الفوضى اخترعوا فكرة الإله الأزلى الذي يحاسب ويثيب ليضبط شأن الناس تماما .

كما قام آخرون بامتلاك بعض الأراضي فاخترعوا القانون ليحمـــــى ممتلكاتهم ، وليقضيِ على فوضى الآخرين كذلك .

وهكذا تؤدي آراؤهم الى أن الأديان شئ مخترع شأنه شـــــأن القانون طبقا لحاجات الانسان ، لا أنه شئ أصيل فى النفــــس أو نزل به الانسان بأمر من الله سبحانه وتعالـــى .

النظـــرة الثانيــة : الأديـــان حقيقـــــة

لقد أثبتت الدراسات خطأ هذه المزاعم السابقة وتبين من خـــلال دراسة الأديان الشرقية ((أن فكرة التدين فكرة مشاعة لم تتخل عنهـا أمة من الأمم فى القديم والحديث ، رغم تفاوتهم فى مدارج الرقـــي ودركات الهمجية . وهكذا ظهر أنها أقدم فى المجتمعات من كـــل حضارة مادية ، وأنها لم تقم على خداع الرؤساء وتضليل الدهـــاة ، ولم ترتكز على أسباب طارئة أو ظروف خاصة ، بل كانت تعبر عـــن نزعة أصيلة مشتركة بين الناس))(١)

الا أن عموم الأديان لجميع الجماعات لا يعني عمومها لكـــل أفرادها ، فانه لا تخلو أمة من وجود " ذاهلين " قد غمرتهــم تكاليف الحياة وأعباؤها .. كما لا تخلو أمة من " منكرين ساخريــن "

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ص ٨٢

وهم فى الغالب من المترفين الذين لم يصادفهم من عبر الحياة وأزماتها ما يشعر نفوسهم معنى الخضوع والتواضع والتفكير فى بدايتهم ونهايتهم .. وهذا الاستثناء لا ينفي كون الغريزة الدينية بصفة عامة فى طبيعة النفس البشرية .

ويذكر الدكتور دراز ((أما فكرة التدين فى جوهرها فليس هناك دليل واحد على أنها تأخرت عن نشأة الانسان))(١)
واستدلالا على قوله نورد ما يلى ..

ـــ يقول معجم (لاروس) للقرن العشرين :
((إن الغريزة الدينية : مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية ... وإن الاهتمام بالمعنى الالهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للانسانية ويقول : ان هذه الغريزة الدينية " لـ تختفى . بل لا تضعف ولا تذبل . إلا فى فترات الاسراف فى الحضارة وعند عدد قليل جدا من الأفراد "))(٢)

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ص ٨٢
٢ - كتاب الدين " مصدر سابق " ص ٨٢ ، ٨٣

ـــ وكتب بارتيلمى سانت هيلير :

((هذا اللغز العظيم الذى يستحث عقولنا : ما العالم ؟ ما الانسان ؟ من أين جاءا ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ؟ ما هدفهما ؟ كيف بدءا ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ما القانون الذى يجب أن يقود عقولنا فى أثناء عبورنا فى هذه الدنيا ؟ أى مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة ؟ هل يوجد شئ بعد هذه الحياة العابرة ؟ وما علاقتنا بهذا الخلود .. ؟

هذه الأسئلة . لا توجد أمة ، ولا شعب ، ولا .. مجتمع ، إلا وضع لها حلولا جيدة أو رديئة ، مقبولة أو سخيفة ، ثابتة أو متحولة ...))(١)

ـــ ويقول شاشاوان :

((مهما يكن تقدمنا العجيب فى العصر الحاضر .. علميا وصناعيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا ، ومهما يكن اندفاعنا فى هذه الحركة العظيمة للحياة العملية ، وللجهاد والتنافس فى سبيل معيشتنا ومعيشة ذوينا ، فان عقلنا فى أوقات السكون والهدوء ، عظاما كنا أو متواضعين ، خيارا كنا أو أشرارا ، يعود

---

١ ـ كتاب الدين " مصدر سابق " ص ٨٣

إلى التأمل فى هذه المسائل الأزلية : لم وكيف كان وجودنا ووجود هذا العالم ؟ وإلى التفكير فى العلل الأولى أو الثانية ، وفى حقوقنا وواجباتنا))[١]

— ويقول هنرى برجسون :

((لقد وجدت وتوجد جماعات انسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة))[٢]

— وهناك شهادات أخرى لكل من كروبر - ولنج - وسميتو - وارنولد وباروخ سبنوزا - وهكنج - وغيرهم (٣) .

وهكذا يبدو الدكتور دراز مسلما وداعيا ومفكرا فى الوقت ذاته ، أما أنه مسلم فلأنه يدين بما جاء فى القرآن الكريم ازاء فطرية التدين حيث يقول الله جل جلاله ((فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها))[٤] والفطرة فى اللغة تعنى الابتداء فى كل أمر قال تعالى ((فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا))[٥] وليس المجال هنا لتعداد المعانى واثباتها

---

١ ، ٢ - كتاب الدين " مرجع سابق " ٨٣

٣ - عفيف عبد الفتاح طبارة - روح الدين الاسلامى - ٨٠ - ٨١

- أنظر الله يتجلى فى عصر العلم ٣٥ - ٣٦

٤ - سورة الروم آية (٣٠)

٥ - سورة الشورى آية (١١)

لتلك الكلمة " الفطرة " والفطرة [1] كما اتفق عليها العلماء أمر خلقه الله فى النفس الانسانية قال تعالى ((فطرة الله التى فطر الناس عليها))[2] حدث أبو هريرة رضى الله عنه قال النبى صلى الله عليه وسلم ((ما من مولود الا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء))[3] وعرفها البعض بأنها الاسلام والاستعداد له وهذا أوضح الأمور .

ونحن نعلم أنه سبحانه يخلق كل كائن على حالة من الاستعداد تتناسب مع المهمة المنوطة به ومن الحقائق أن يولد الانسان مستعدا للدين والعبادة ، ولكن هذه الطبائع قابلة للتغيير بفعل العوامل الخارجية والبيئة المحيطة والتكييف مع الجو السائد حولها ..

وفسر بعض العلماء الفطرة بأنها الصبغة التى ورد ذكرها فى القرآن ((ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون))[4] وهى صبغة وراثية ، قال ابن عطية فى ذلك ((صبغة الله شريعته وسنته وفطرته وقيل الصبغة الدين وسمى الصبغة استعارة من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين كما يظهر الصبغ فى الثوب وغيره.

---

١ - أنظر فى معنى الفطرة لسان العرب ج ٢ - ١١٠٨ والمخصص لابن سيده ج ٤ مادة فطر ومختار الصحاح ٥٠٦ والابيارى الموسوعة القرآنية ج ٣ - ٢٥٣ والراغب المفردات ٣٨٢ ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ابن الزبيدى ٣٣٨ ومحمد على ابراهيم "معجم الألفاظ والاعلام القرآنية " ٤٠٢ .

٢ - سورة الروم آية (٣٠)

٣ - حديث صحيح رواه مسلم "صحيح البخارى ج ٢ ٩٧

٤ - سورة البقرة آية (١٣٧)

وقد صبغ الله على النفوس صبغة لا مثل صبغة البشر فلا أحسن من صبغتـــه))(١)

ونخلص من هذا الى أن الاسلام قد سبق العلم فى الاشارة الى فكرة الوراثة واستعمل المصطلح الذى يستعمله علماء النفـــس وهـــى الصبغة وسبق علماء الاجتماع فى تأثير البيئة وتغـــيير الاستعـدادات الفطرية لتتغلب عليها دوافع بيئية مكتسبة .

وأما أن الدكتور دراز داعية فلأنه يدعو الناس الى تـــلك الحقيقـــة الكامنة فى نفوسهم وعليهم أن يفتشوا فيها وأن يزيلوا الركام عنهـــا ، انه يستحث الذاهلين والساخرين والمترفين أن يفيقوا مما هم فيـــه وأن يتجهوا الى أنفسهم سائلين ومنقبين ولسوف يجدون الحقيقـــة كامنة تنطق بهدوء فى أعماقهم وراء الكون إلـه يجب أن يعبد ، ان النفس لا تتأبى على الخضوع لله برضا وطواعية وان تأبت أحيانا علـــى الخضوع للبشر ، انها تطالب بحريتها وشعورها باحترام الذات فـــى علاقتها بالآخرين على حين ترتمى على أعتاب الألوهيـــة فـــى مذلـــة واستكانة وتواضع وعبودية وترى أن الحرية كل الحرية فى ذلك(٢)

---

١ - القاضى أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلســـى ٤٨١ - ٥٤٦ هـ - المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ...... تحقيق المجلس العلمى بفاس ج ١ ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ٥٠٥

٢ - د / عبد الله الشاذلى - المنهاج القرآنى - تكوين واقناع ٦٣ - ٧٤ المكتبة القومية الحديثـــة .

وأما أن الدكتور دراز مفكر فهذا ما نلمسه من طريقته ، إنه يعرض وجهة نظر الخصوم ثم يرد عليها بشهادة أبناء جلدتهم ، ويدحض الفكرة بالفكرة فى حيدة ونزاهة تامتين ..

المبحث الثالث :

============

الدين يقتضي الخضوع

::::::::::::::::::::::::::::::::

الناظر إلى العالم العلوي فى جملته يراه مسخرا تحت سلطان القدر ، فى أوضاعه وأحجامه ، وحركاته وطبائعه كما أن عالمنا الأرضي كذلك نجده مقيدا بنسب معينة من البعد عن الشمس وعن الكواكب وبمقادير معينة من الضوء والحرارة والضغط الجوي .. والكائنات الحية على ظهر الأرض خاضعة لقانون الشيخوخة والهرم وأخيرا ظاهرة الموت ..

((تلك كلها ضروب من الخضوع الطبيعي ، منها ما هو آلي لا شعوري ، ومنها ما هو شعوري اضطراري ، كمثل الذي يتردى من نافذة علوية ، فهو حين يهوى فى الفضاء لا يسعه الا الاستسلام لهذه الحركة القسرية راغما مكرها))[1]

أما المتدين فانه يخضع لله خضوعا اراديا من شعور ويقظة وعبودية وذلك كله عن طواعية .. واذا كان هناك من تهديد بالعقاب فإنه لا يحيل عبودية الانسان الحرة إلى قسرية وانما يزيدها .

---

١ ـ كتاب الدين " مصدر سابق " ٤٨ ، ٤٩

وأيضا فان من أهم ما يمتاز به الخضوع أنه شعور يرفه عن القلب بما يفتحه أمامه من آفاق الامكان وهو شعور يضع عن النفس الأثقال ويحطم ما حولها من الأغلال وتكاد لا تعثر فى لغته على المحال على حد تعبير الدكتور دراز نفسه ..

((فاذا اشتدت الأزمات ، وضاقت الحلقات ، أمام المتدين ، تراءى له من خلالها أبواب ومخارج ليس دون انفراجها الا أن يأذن معبوده . ولذلك اذا رأيته فى توجهه الى هذا المعبود رأيته مقسم القلب أبدا بين الرغبة والرهبة ، موزع الأمل بين الشك واليقين ، لأن القوة التى يتوجه اليها بالعبادة هى فى نظره أعز مثالا ، وأعظم استقلالا ، من أن تخضع لغير ارادتها نفسها ، تلك الإرادة التي لا يعرف هو قانونها بل يقف حائرا أمام أسرارها))(١)

ومن هنا فالخضوع لا يخلق اليأس أو يكبت النفس أو يقلل من الجهد .

هذا الترقب والانتظار فى مزيج من الأمل والحذر أمام دولاب .. الحوادث هى إحدى الظواهر العامة التى لا نجدها فى نفسية المتدين ، ذلك أن الطبيعيين حين يرون ترابط الأشياء وتتابعها فى نظام مطرد ، يقف بهم النظر فى هذه النظم عند حد العادة الجارية ، فيطمئنون الاطمئنان كله الى استقرارها ودوامها ،

---

١ ـ كتاب الدين " مصدر سابق " ص ٥٠

ويبأسون اليأس التام من تحولها وانفصامها .

أما العقيدة الدينية (وكذلك الفلسفة الروحية) فانها لا تخضع لسياسة الأمر الواقع ، بل تنفذ إلى بواطن الأمور وأعماقها ، فتقيس الوجود بمقاييس العقل ، وتزنه بموازين الامكان ، وبذلك يتكشف لها الكون عن حقيقته وترى أمر بقائه أو تطوره رهينا بالارادة التي وضعت هذا النظام وحفظته .

هكذا نرى الأديان في كل صورها ومظاهرها تقف إلى جانب الأمل والامكان والحرية والاختيار في مبدأ الأشياء . اذ تفسح المجال أمامها في تغيير معالم الأشياء إلى مدى أبعد مما تتصوره العلوم الواقعية . والتي تعيش يوما بيوم ، لا تؤمن إلا بعينها ، إلا أنها في سيرها الحثيث إلى الكشف والتجديد خاضعة في الواقع من حيث لا تشعر لدفعة خفية من الايمان بامكانيات لا نهاية لها في الكون وأن كل جديد تحصل عليه في تبديل أوضاع الأشياء إنما هو ثمرة مجهودات ارادية عاقلة وليس هناك مثال واحد ، منذ عرف الانسان الكون يدل على أن الطبيعة بدلت أوضاعها ، وأحدثت في نفسها قوة شاعرة مستقلة عن تلك المادة ، مهيمنة عليها ، هذا هو أساس الفكرة التي تسيطر على الدينيات والروحيات جميعا ، وهي أن على رأس كل سلسلة من الأسباب قوة الانشاء والابتكار التي لابد أن ينطوى عليها السبب الأول .

ان العلوم الواقعية حين تنظر من هذه الآلة الكونية الدقيقة

لفحص أجزائها وتعرف قانون سيرها إنما يعنيها من وراء هذا البحث تنظيم الجهد الانساني وتنسيقه على وفق ذلك القانون الآلي لذلك فلا لوم عليها في اهمالها السؤال عن مخترع هذه الآلة وواضع ذلك النظام بل اللوم على الإنسان حين يضع هذه القيود الحقيقية لعقله، ويسكت ذلك الصوت السماوى الذى يناديه من أعماق روحه ، مستحثا على استكمال فطرته ، زاجرا له عن الاكتفاء بنظره فى حاضر الأشياء وحاضره ، عن التطلع إلى مبدئها ونهايتها ، والى مبدئه ونهايته.

ويخلص من هذا كله الدكتور الى استخراج العناصر الرئيسة التي يؤلف منها الحد التام لماهية الدين فيقول ..

((" الدين هو الاعتقاد بوجود ذات - أو ذوات - غيبية ،علوية ، لها شعور واختيار ، ولها تصرف وتدبير للشؤون التي تعنى الإنسان. اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية فى رغبة ورهبة ، وفى خضوع وتمجيد" وبعبارة موجزة هو " الإيمان بذات إلهية ، جديرة بالطاعة والعبادة " هذا إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجية فنقول : " هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الالهية ، وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها "))(١)

وقد أشار إلى ملاحظتين مهمتين فى تعريف (دوركايم) و (رينـاك) وأتباعهما وهما :-

---

١ - كتاب الدين " مرجع سابق " ص٥٢

١ - أنهم لم يعتبروا من القدسية الدينية سوى جانبها العملي (السلبي) .

٢ - أنهم من تجريدهم ماهية الدين من فكرتي " الروحية " و " الإلهية " قد جردوها من أخص صفاتها ونزعوا منها المحور الذي تدور عليه كل عناصرها .

وفي الحق أن التعريف الذي يقدمونه لنا بعد حذف هاتين .... الخاصتين يمكن تطبيقه على كل مظهر من مظاهر النشاط الاجتماعي متى كانت له صبغة السنن الموروثة التي يلتزم الجمهور مراعاتها .

وهكذا يبدو داعينا واعيا كل الوعي لمهمته الأساسية ، فهو لا يريد من دعوته للدين أن تكون فكرة نظرية مجردة لا تنال منا إلا مجرد الاعتراف والاقرار ، إنما يريده تدينا عميقا يؤثر في النفس - بالخضوع والعبودية والخشية - وتمتلئ النفس بموضوع عقيدتها تقديرا وتعظيما وإجلالا ، هذا في الداخل ، وفي الخارج يؤدي المتدين ضروبا من الطاعات ، ويلتزم أنماطا من السلوك المستقيم ، ويخضع لنظام الدين وأوامره .

وفي تركيزه على الجانب النفسي والخارجي تصدر عنه تلك الأفكار من حديث القرآن عن الخضوع والخشوع والرهبة والتقوى والخوف والرجاء والحب ، ومطالبته للبشرية بأداء تكليفات شرعية محددة مثل الصلاة والزكاة والصيام والحج والذكر والتلاوة الى آخره ، وأيضا من

دعوة القرآن الى الخلق الفاضل المستقيم .

وليس هذا فقط بل إنه يستقرئ تاريخ الجماعات المتدينة ويرى أن الحالة النفسية والخارجية هي السمة التي غلبت على كل متدين حقيقي .

ولا يفوته أن يذكر ما تمتاز به حالة التدين من علاج للأزمات النفسية والضيق الداخلي عندما تتعسر الأمور وتتعقد عندئذ يلجأ الإنسان إلى ربه فاذا كل شئ قد صار سهلا ، وإذا الأمنيات حتى ولو لم تتحقق قد بات طالبها في رضا كامل واستقرار مكين .

انه داعية جيد ومحلل بارع ، ومسلم من طراز فريد .

المبحث الرابـــــع :

عناصـــر الحالـــة الدينيـــة

::::::::::::::::::::::::::::::::::

أ ـ الإلـــه ذات لا فكـــرة :

....

هنا يشرح الدكتور دراز الفرق بـــين الخضوع الديني ، وبين أي خضوع آخر ، ردا بذلك على الذيـــن يحذفون مبدأ الألوهية من تعريف الأديان .. فيرى أن التحليـــل الدقيق لنفسية المتدين ، يكشف لنا نوعين من هذه الفروق والمميزات ..

أحدهمـــا : في صفات الشئ الذى يقدسه المتدين ويخضـــع لــــه .

وثانيهمـــا : في طبيعـــة هذا الخضوع .

فأول ما يواجهنا من الفرق بين الخضوع الديني واللاديني ، يتمثل في مجموعة الصفات التي يحدد بها المتدين خضوعه ، ومناط تقديسه الديني ، ويميزه بها عن سائر الأشياء التي يعظمها ، ويخضـــع لسلطانها .

كلنا يقدس معنى الشرف ، والعرض ، والحرية ، والكرامة .. وما الى ذلك من المعانى والفضائل الانسانية النبيلة ، وكلنا نشعـــر بالخضوع والطاعة القهرية لقوانين الكون ، وسننه الثابتة ، الـــتي

لا نستطيع أن ننقضها ، أو نبدلها ، كالفرح ، والحزن ، والجوع ، والفزع ، وغير ذلك من معانى مجردة ، مستقرة فى النفوس ، ليس لها دلالة ذاتية خارجة عن معانيها تلك ، لكن الشئ الذى يقدسه المتدين ليس من جنس تلك المعاني العقلية المجردة ، وليس من قبيل هذه التصورات الشائعة المبهمة ، وذلك أن المتدين يهدف بتقديسه إلى حقيقة خارجة عن نطاق الأذهان ، وإن كانت تعبر عنها الأذهان ، فانها فى هذا التعبير تشير إلى ذات مستقلة ، قائمة بنفسها ، ليست مجرد عرض من الأعراض ، أو لقب من الألقاب .. أي أن لها تصورا خارجيا عن الأذهان ، يتمثل فى كونها ذات لها استقلالية كاملة ، وكمال مطلق ..

هكذا ينفصل منذ البداية موضوع العقيدة الدينية عن هذا الضرب من المعانى المجردة التي نقدسها ، أو نخضع لها .. وذلك من حيث أن الصلة بين المقدس عند المتدينين ، هى قبل كل شئ صلة بين ذات وذات .. لا بين ذات وفكرة مجردة ، أو .. تجريدية ، وعلى ضوء ذلك ،فان الله لدى المتدينين تتصوره عقولهم على أنه ذات حقيقية لها وجود خارجى فيما وراء ذلك التصور العقلي ، وليست معاني مجردة عن الذات .. (١)

---

١ ـ أنظر كتاب الدين " مصدر سابق " ٣٩-٤١

يقول الأستاذ العقاد [1] ..

((الله ذات واعية .. فلا يجوز فى العقل ،ولا فى الدين ، أن تكون حقيقة غير هذه الحقيقة ، وأن يوصف بأنه معنى لا ذات له ، أو قوة لا وعي لها ، كما وصف فى بعض المذاهب النسكية ، - كالمذهب البوذى - الذي تفرع عن البرهمية ، ولا يخرج الباحث من مراجعته على وصف مستقر للمعنى الذى أرادوه .

والكلمة العربية التى تعبر عن هذه الحقيقة - وهى كلمة الذات - أصح من الكلمات التى تقابلها فى لغات الحضارة الغربية أو الشرقية المعروفة ، لأنها تمنع كثيرا من اللبس الذى يتطرق إلى الذهن من نظائر هذه الكلمة فى اللاتينية ومشتقاتها .

فاذا أطلقت هذه الكلمة فى تلك اللغات فان الذهن ينصرف لا محالة الى الماهية والجوهر والذات ، ويجعل لها حكما واحدا فى التصور والتقدير ، فيستدق عليه الفارق بين المقصود بالذات ، والمقصود بالجواهر والماهيات .

أما كلمة الذات فى اللغة العربية فلا تستلزم التشخيص فى الحقيقة ، ولا فى المجاز ، ولا تقتضى نزاهتها عن التشخيص أنها معنى بغير كيان مشتمل على الوعى والصفات الواعية ، فهى تدل على الجوهر الذي تضاف اليه الأوصاف ، وتدل على الكائن الذي يملك صفاته ، فهو " ذو " تلك الصفات ولا تعارض صفة الوعي

---

١ - الموسوعة الاسلامية ، ٧٣ - ٧٧

والارادة والاستقلال بالكيان .

واذا قلنا ان الكمال المطلق ذات ، لم نشعر بما يومئ إلى التناقض بين صفة الكمال الذي لا حدود له ، وصفة " الشخص " أو المادة المستقرة بعد رسوب .

فالكمال المطلق يحتوي كل موجود " والذات " الالهية تعبر عن هذا المعنى أصح تعبير . فالعقل يستلزم أن يكون الكمال المطلق " ذاتا " وتتطلب كائنا " كاملا " يوصف بالكمال ، وينكر أن يجعله معنى خلوا من الوعي ، لأن نقص الوعي ، نقص من الكمال ، ونقص من صفات الكامل الذى لا يعاب .. ومن فكر فى الله ،فكر فى ذات .. ومن آمن بالله أمن بذات . والعقل الدين فى ذلك متفقان .

ب ـ الالـــه ليـس مادة :

ويستطرد الدكتور دراز ، بعد اثبات الذات الالهية ، فـــى اثبات صفات الكمال لتلك الذات .. ونفي ما عدا ذلك مما خاصـــه فيه الماديون ، وما شاكلهم . فيقـــول ..

((ثم ان هذا التقديس الديني ليس تقديسا لذات أيّا كانـــت ، وانما هو تقديس لذات لها صفات خاصة ، وأهم مميزاتها أنها ليست مما يقع عليه حس المتدين ، ولا مما يدخل فى دائرة مشاهداتـــه ، وانما هى شئ غيبى لا يدركه الا بعقله ووجدانه .

فالفاصل الثانى الذى تتميز به العقيدة الدينية بمختلف أنواعهـــا هو أن لها خاصة الايمان بالغيب ، أى بما وراء الطبيعة .

ثم ان هذا الغيب الذى تؤمن الأديان بوجوده من وراء الطبيعة ، ليس من جنس هذه الطبيعة المادية المنفعلة ، بل هو شئ ذو قـــوة فعالة ومؤثرة ، وله أسلوب فى تصرفاته ، مباين للطرائق التى تؤثـــر بها المادة فيما حولها ، اذ أن هذه المواد يصدر عنها أثرهـــا دون شعور منها ، ولا اختيار لها فى صدوره))[1]

ان دراسات الباحثين فى نفسيات المتدينين وعقلياتهم قـــــد

---

١ ـ أنظر كتاب الدين " مصدر سابق " ٤٠ - ٤١

تطابقت على أنه ليس هناك دين ، أيا كانت منزلته من الضلال والخرافة ، وقف عند ظاهرة الحس ، واتخذ المادة المشاهدة معبودة لذاتها . وأنه ليس أحد من عباد الأصنام والأوثان كان هدف عبادته في الحقيقة هياكلها الملموسة ، ولا رأى مادتها من العظمة الذاتية ما يستوجب لها منه هذا التبجيل والتكريم ، وكل أمرهم هو أنهم كانوا يزعمون أن هذه الأشياء مهبطا لقوة غيبية ، أو رمزا لسر غامض ، يستوجب منهم هذا التقديس البليغ ، فهي في نظرهم أشبه شئ بالتمائم والتعويذات ، التي يتفاءل أويتبرك بها البعض ، أو يستدفع بها شئ من الحسد والسحر ، لا على أن لها خاصية ثابتة كامنة فيها كمون النار في الرماد .. بل على أن وراءها ، أو حولها روحا عاقلا [1].

ولعل ما ذهب اليه الدكتور في هذا الشأن هو المفهوم من معنى الآية الكريمة ..

((ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى))[2]

---

١ - أنظر كتاب الدين " مصدر سابق " ص ٤٢

٢ - سورة الزمر آية (٣)

ج ـ الالـه ذو تصرف اختيارى :

كما يستطرد الدكتور لاثبات صفة الارادة للاله المعبود فيقول ..

((ان المعاني المجردة ، أو القوانين الطبيعية ، والسنن الثابتة، التى تخضع لها خضوعا قهريا فى بعض الأحيان ، تختلف اختلافا بينا عن تلك الذات الالهية التي نخضع لها فى عبادتنا ، ذلك أن تلك القوانين والسنن الكونية ، تصدر عنها أفعالها بصفة قهرية ، ودون أدنى شعور منها ، ولا اختيار لها فى صدوره ، أما الذات الالهية ، أو القوة التي يخضع لها المتدين ، فانها قوة عاقلة ، تقصد ما تفعل ، وتتصرف بمحض ارادتها ومشيئتها .))[1] قوة مدبرة ، مستقلة الارادة ، تستطيع أن تغير بمشيئتها سير الأمور ، ومجرى العادات ، فتعطى وتمنع ، وتضر وتنفع ، من حيث لا ينتظر الناس ذلك فى العادة .

ولعل هذا ما تشير اليه الآيات القرآنية الكريمة من قوله تعالى :

((قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله))[2]

((ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين))[3]

((ان ربك فعال لما يريد))[4]

---

١ ـ كتاب الدين " مصدر سابق " ص ٤١
٢ ـ سورة الأعراف آية (١٨٨)
٣ ـ سورة الأعراف آية (٥٤)
٤ ـ سورة هود آية (١٠٧)

د - الاله يهيمن على الكون
بما فيه الانسان :

ثم ينتقل الدكتور دراز بعد ذلك لاثبات صفة القدرة للذات الالهية ، والاحاطة بكل شئ ، فمن مقتضى القدرة ، أن يخلق ما يشاء من العدم ، ويريد لخلقه ما يشاء ، ويمنع عنهم ما يشاء .. فيقول ..

((.. هذه القوة العاقلة المدبرة فى نظر المتدينين ليست قوة منطوية على نفسها ، منعزلة عنه ، وعن العالم ، بل يرى أن لها اتصالا معنويا به وبالناس ، تسمع نجواهم ، وتصغى لشكواهم ، وتعنى بآلامهم وآمالهم ، وتستطيع ان شاءت ، أن تكشف عنهم ما يدعونها اليه (١) وأن هذه القوة لها عناية مستمرة بشؤون العالم الذى تدبره ، وأن لها تجاوبا مع المتجهين اليها بالدعاء ، ولها مطلق الحرية فى قبول مطالبهم أو رفضها (٢) وشأن المتدين أنه يضع فى مبدأ كل فعل فاعلا ، معتقدا أنه لا يقع فى الكون شئ من دقيق الحوادث ، وجليلها الا وللاله فيه قضاء وتدبير ، وأنه تربطه بتلك القوة الالهية واجبات وحقوق وملجأ يلجأ اليها كلما حزبته حاجاته ، وتعسرت عليه رغباته (٣) والعابد يقف من معبوده

---

١ ، ٢ ، ٣ - أنظر كتاب الدين " مصدر سابق " ٤٢-٤٤-٤٥

موقف الخاضع ، المتواضع ، الساعي فى رضى سيده ، المشفق من غضبه وسخطه ، فهو مؤمن بأن الذات الالهية ، قوة علوية ، سبحانية ، قاهرة غير مقهورة ، يخضع هو لها ، ولا تخضع له .

لا كما هي فى تصور العالم الروحاني ، أو الطبيعي ،أو المادي بصفة عامة ، ذلك أن قبلة العالم المادي تحت أقدامه ، وقبلة العالم الروحي هى فى مستوى وجهه وأفقه ، أما المؤمن فانه يتجه الى القوة العليا باطلاق .. فالكل ينكسون أبصارهم إلى الأرض ، والمؤمن يرفع رأسه وبصره إلى السماء (١) .

ولا ريب أن هذا مصداق قوله تعالى ..

((وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء))(٢)

((وأن الله قد أحاط بكل شيئ علما))(٣)

((وسع ربنا كل شيئ علما))(٤)

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ٤٦-٤٧

٢ - سورة يونس آية (٦١)

٣ - سورة الطلاق آية (١٢)

٤ - سورة الأعراف آية (٨٩)

٦

المبحـــث الخامـــس :

العنصر النفسى فى العقيدة

أ - الفرق بين الخضوع الدينى والخضوع الطبيعى :

لقد تناول الدكتور دراز ، خلال عرضه السابق لموضوع الديـــن ، جميع ما يتصل بالتدين ، من حيث ظهوره ، ونشأته لـــــدى المتدينين ، والمراحل التي مر بها ، كما رآها الباحثون فى تاريـخ الأديان ، وآراء الفلاسفة ، والطبيعيين ، والروحيين ، فى هـــذا الموضوع ثم معتقدات أهل الكتب السماوية ، وأخيرا العقيدة الالـهيـة فى الاسلام .. دون أن يشير إليها صراحة فى بعض الأحيـــان ، ولكن من خلال معارضته لبعض تلك الآراء السابقة لمخالفتها لما جـاء به الاسلام ..

وهنا يريد أن يوضح فرقا شاسعـا بين خضوعين ، وبـــين توجيهين فيقـــول ..

((ليس كل إيمان بقوة غيبية روحية ، ولا كل توجه إلى تلك القوة ، يدخل صاحبه فى جماعة المتدينين ،فان موقف العالم الروحاني فـــى مناجاته للأرواح ، ليس أحق باسم التدين من موقف أخيه العالـــم الطبيعي ، لدى الأشباح . وان كان يشتبه الأمر بينه وبين موقـــف

المتدين في عبادته ، من حيث أن كلا منهما يتوجه إلى قوة خفية ، أو يتصل بها ، يستلهمها ، ويلتمس عونها ، إلا أنه على الرغم من الاشتراك في جنس هذه الصلة ، فان الحقيقتين تختلفان اختلافا كبيرا ، حتى أن طرفي النسبة في الأوضاع غير الدينية قد يبدوان منعكسين تمام الانعكاس ، بالنسبة لهما في الأوضاع الدينية .. ذلك أن القوى السرية التي يدعوها الساحر ، أو العالم الروحاني ، أو الكاهن ، أو مناجي الأرواح ، لا تقع صورتها في أخيلتهم على أنها شئ يعلوهم ، فيتطاولون اليه ، بل على أنها قرين ينازلونه ، أو قرين يخادنونه ، وقد يرون لأنفسهم من العلو والسلطان على تلك القوى ، بوسائلهم الخاصة ، ما يستطيعون به أن يقتنصوها ، ويخضعوها لأوامرهم ، ويسخروها لرغباتهم ، تماما كما يسخر عالم الطبيعة ، أو العالم الكيميائي عناصر الطبيعة المادية لمآربه .

أما العابد ـ المؤمن ـ فانه يقف من معبوده موقف الخاضع ، المتواضع ، الساعي في رضى سيده ، المشفق من غضبه وسخطه .. فهي مناجاة من أدنى الى أعلى ، أما في الأولى فبالعكس .

ثم يستطرد الدكتور قائلا ..

((فالفاصل الأخير ، الذى يتم به تصوير القوة التى يؤمن بها المتدين ، أنها قوة علوية سبحانية ، قاهرة غير مقهورة ، يخضع هو لها ، ولا تخضع له .

وان شئنا أن نضرب مثالا حيا لهذه الأهداف المختلفة ، قلنا .. ان قبلة العالم المادي تحت أقدامه ، لأن القوى التي هو منها

بسبيل قوى عمياء صماء ، يحس بها ولا تحس به ، واذا دعاها لا تستجيب له ، وقبله العالم الروحى هى منه فى مستوى أفقه ، لأنها وان كانت أقدر منه على التصرف ، الا أنها قوى حية عاقلة مثله ، ولكنها من وجه آخر هى دونه ، لأنها تحت يده ، متصرفة بأمره ، ومنقادة الى تعاويذه ، وطلاسمه .

أما المؤمن فانه يهدف بمناجاته إلى أعلى من ذلك كله ، لأنه يتجه الى القوة العليا باطلاق ، فالكل ينكسون أبصارهم إلى الأرض ، والمؤمن يرفع رأسه الى السماء .))

لا شك أن هذا التصوير دقيق للغاية لحالة كل من المؤمن بذات عليا قادرة مريدة ، يتصف بكل صفات الكمال ، وبين عالم الطبيعة المؤمن بالمادة لاغير ، أو الروحانى الذى يسخر الأرواح لخدمة أغراضه .. وان خضوع المؤمن فيه تعظيم واجلال ، وفيه أيضا راحة نفسية ، واطمئنان قلبى ، تولد من الشعور باللجوء الى من بيده مقاليد الأمور ، ومن هو قادر على اجابة طلب من دعاه ولجأ اليه .

ويستطرد الدكتور موضحا الفرق بين الخضوعين فيقول ..

((الناظر الى العالم العلوى فى جملته يراه مسّخرا تحت سلطان القدرة ، فى أوضاعه وأحجامه ، وحركاته ، وطبائعة ، كل شئ فيه له قدر لا يعدوه ، وطور لا يتجاوزه .. والناظر أيضا فى عالمنا الأرضى يجده مقيدا بنسب معينة ، من البعد عن الشمس ، وعن الكواكب ، وبمقادير معينة من الضوء ، والحرارة ، والضغط الجوى وغيرها ، ..

.. والناظر الى الكائنات الحية التى على ظهر الأرض يراها كلهـــا خاضعة لقانون الشيخوخة والهرم ، وأخيرا لظاهرة الموت .

وتلك كلها ضروب من الخضوع الطبيعى .. منها ما هو آلـــى لا شعورى ، ومنها ما هو شعورى اضطرارى ،كذاك الذى يـــتردى من نافذة علوية ، فهو حين يهوى فى الفضاء ، لا يسعه الا ...... الاستسلام لهذه الحركة القسرية راغما مكرها .

أما المتدين فخضوعه شعورى اختيارى معا ، فهو حين يخضـــع ويخشع لمعبوده ، ويسجد لعظمته ، يفعل ذلك عن طواعية لا عـــن كراهية ، لأنه يقوم بحركة نفسية من التمجيد والتقديس تأبى طبيعتهـا أن تؤخذ قهرا .. وإنما تعطي وتمنح لمن يستحقها متى اقتنعـــت النفس بهذا الاستحقاق .))[1]

بهذا كله أوضح الدكتور الفرق بين خضوع المؤمن لمعبوده سبحانه وتعالى ، وبين الخضوع فى العقائد الأخرى فيما عدا أهل الكتاب .

---

١ ـ أنظر فى كل ما سبق ـ كتاب الدين ـ مصدر سابق ، ٤٥ -٤٧

ب ـ الايمان جماع أمل وحذر :

وهنا أيضا يوضح الدكتور أن خضوع المؤمن لخالقه ، ليس هو ذلك الخضوع الذي يبعث على اليأس والقنوط ، ويكبت النفس إلى آفاق رحبة من الطموح والرجاء والرضى من جانب المعبود فيقول ..

((ان خضوع المتدين لمعبوده ، وان كان خضوعا كليا ،لقوة قاهرة كما يقولون ، ليس هو ذلك الخضوع الذى يخلق اليأس ، ويكبت النفس ، ويغل من الجهد ، ويحد مجال العمل ، ويسد باب الأمل ، بل هو شعور يرفه عن القلب بما يفتحه أمامه من آفاق الامكان ، هو شعور يضع عن النفس الأثقال ، ويحطم ما حولها من الأغلال ، وتكاد لا تعثر فى لغته على كلمة " المحال " فاذا اشتدت الأزمات ، وضاقت الحلقات ، أمام المتدين ، تراءى له من خلالها أبواب ، ومخارج ليس له دون انفراجها الا أن بأذن معبوده .

ولذلك اذا رأيته فى توجهه الى هذا المعبود ، رأيته مقسم القلب أبدا ، بين الرغبة والرهبة ، موزع الأمل بين الشك واليقين ، لأن القوة التى يتوجه اليها بالعبادة هى فى نظره أعز مثالا ، وأعظم استقلالا ، من أن تخضع لغير ارادتها نفسها ، تلك الارادة التي لا يعرف هو قانونها ، بل يقف حائرا أمام أسرارها .

هذا الترقب والانتظار ، فى مزيج من الأمل ، والحذر ، أمام دولاب الحوادث ، هو إحدى الظواهر العامة التي نلاحظها في

نفسية المتدين ، ولا نجدها إلا فى نفسية المتدين .

هكذا نرى الأديان فى كل صورهاومظاهرها تقف إلى جانب الأمل والامكان والحرية والاختيار فى مبدأ الأشياء .))(١)

ان المؤمن فى توجهه إلى الله يكون لديه اعتقاد مستقر فـــي أعماق نفسه ، بأنه مدين ، للخالق العظيم جل وعلا ، مديـــن بوجوده ، وبما أسبغ عليه من نعم وآلاء ، فيتجه اليه سبحانه بالشكر، والحمد ، والتقديس ، والاجلال ، والثناء ، والاكبار ، ممتزجـــا ذلك كله بالرغبة والرهبة .. الرغبة فى استمرار نعمه وآلائه ، وطلـــب المزيد منهما ، والرهبة من نزول سخطه وغضبه .

((فالمؤمن فى توجهاته سيكون شعوره مزدوجا ، هو مزاج مـــن الاستسلام والرضى بما يقع ، ومن الأمل والرجاء فيما يتوقع .. فهـــو ينحي عوامل اليأس من حسابه ، ويرخي حبل الأمل إلى آماد بعيدة فى حياته ، أو بعد مماته ، بل إنه حين يلتجئ إلى ربه ، يناجيه برغائبه ومخاوفه ، فانما يجد فى هذه التوسلات والدعوات نفسهـــا شفاء وراحة ، هو عليها أشد حرصا منه على موضوع شكواه ، وحسبه أنه فى هذه الانبعاثة يعبر تعبيرا واعيا صادقا ، بأقواله ، وأفعاله وأحواله ، عن مبلغ ادراكه للحقائق ، ومدى شعوره بالتفاوت بـــين ضعف المخلوق ، وقوة الخالق .. وأنه بذلك الادراك ، وهـــو التعبير يحقق المهمة العليا للانسان فى هذه الحياة ، فســـواء

---

١ ـ أنظر كتاب الدين " مصدر سابق " ٤٩-٥١

عليه بعد ذلك كله صادفت دعوته قبولا ، أو ردا ، فهو قد شعـــر بأنه قد أصاب في توجهه من قبل حاجته الكبرى بهذا الخضوع الـذى هضم به كبرياء نفسه ، ووضع به كل شيء في موضعه ، وبهذه العبودية التي أتم بها تصفية روحه ، وانضاج فطرته ، وتلك هي قرة عـــين المؤمنين ، والهدف الأسمى للمتعبدين))[1] ٠

---

١ - أنظر كتاب الدين "مصدر سابق" ١٢٠-١٢٣

الفصل الثاني

==========

الاسلام هو الدين الحق

تحديد المفهوم لكلمة " قرآن "

المصدر الأول لهذا الدين

الاعجاز في القرآن

الوحي بين المعلم والمتلقي

أحقية الاسلام وعالميته

. . . .

تمهيـــد :

بعد أن أثبت أصالة النزعة الدينية إنتقل يتحدث عن الدين الحق وهو الاسلام ، ولقد سلك فى إثبات ذلك مسلكا أملته عليه المشاكل التى إختلقها أعداء الاسلام خاصة المستشرقين وأهمها بشرية القرآن (١) فاضطر الدكتور دراز أن يتناول تلك الفرية وأن يردها بالحجة والبرهان مع أن قائليها يعلمون كذبها أساسا ، ولكنهم كانوا يريدون شغل المسلمين وإغراقهم فى مسائل يحددها الخصوم .

ولقد كان للأعداء أساليب متعددة لشغل المسلمين منها ما هو دينى ومنها ما هو سياسى وإقتصادى أو إجتماعى والغرض من كل ذلك هو إغراق المسلمين في مشاكل يختلقها الخصوم إختلاقا ، وكأنهم أرادوا أن يحددوا لنا نوع الأفكار التى نسلكها حتى لا نسلك الطريق الصحيح صوب التقدم والتطور .

---

١ - أنظر الدكتور محمد البهى " الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى " ٢٢٥ الطبعة السادسة ١٩٧٢م دار الفكر بيروت.

والمهم أن الدكتور دراز إبان تلك المعمعة التى أثارها المستشرقون حول القرآن ، قام بالرد فى كتابه

((النبأ العظيم))

ولقد سبقه فى ذلك محمد رشيد رضا فى كتابه

((الوحى المحمدى))

وأخذ عنهما مالك بن نبى فى كتابه

((الظاهرة القرآنية))

والكتب الثلاثة دحض لفرية واحدة ..

ولقد رأى الدكتور دراز قبل أن يقرر مع النصوص أن ...... الاسلام هو الدين الحق ضرورة إدحاض تلك الشبهة وبيان نهايتها ، ولذا سنسير مع خطته طبقا لنظرته ..

المبحث الأول :

تحديد المفهوم لكلمة " قرآن "

((القرآن)) مصدر على وزن فعلان من " قرأ" وذلك واضح في قوله تعالى ..

((إن علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتّبع قرآنه))[1]

وقد روعي في تسميته" قرآنا " كونه متلوا بالألسن كما روعي في تسميته "كتابا " كونه مدونا بالأقلام [2] .

وفي تسميته بهذين الأسمين إشارة الى أن من حقه العناية بحفظه في الصدور والسطور معا ، فضلا عن أن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظه ..

((إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون))[3]

ولما كان القرآن قد جيء به مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا وزائدا عليها ، وكان سادا مسدها ، ولم

---

١ - سورة القيامة آية (١٧)

٢ - د /محمد عبد الله دراز " النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن " الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م دار القلم الكويت ١٢

- أنظر في تفسير النسفي للامام عبد الله بن محمود النسفي الجزء ٣ ، ٤ دار الكتاب العربي - بيروت ٣١٥

- أنظر فتاوى ابن تيمية ج١٢ ٢٩٩ ، ٥٦٦ مكتبة دار المعارف بالمغرب

٣ - سورة الحجر آية (٩)

يكن شئ منها ليسد مسدة فقد قضى الله سبحانه أن يبقى حجة الى قيام الساعة ، وهو بهذا المعنى الاسمى جزئيا حقيقيا يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص ، وفى نفس الوقت هو حقيقة كلية ، تتسم بالشمول ، لا تحد بالأجناس والفصول ، واذا كان العلماء قد عرفوها بذلك ، فانما القصد تمييزه عن بعض ما عداه ، مما يشاركه فى الإسم ، فاذا أردت تعريف القرآن تعريفا تحديديا فلا سبيل لذلك إلا بأن تشير اليه مكتوبا بالمصحف أو مقروءا باللسان فتقول ((هو ما بين هاتين الدفتين . أو تقول هو ما يبدأ ب " بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين الخ : من الجنّة والناس))[1]

وقد أراد العلماء من بيان إختصاص الاسم به إنما هو تقريب معناه وتأكيد صفاته التى إمتاز بها عن سائر كتب الله تعالى ، والأحاديث القدسية ، وبعض الأحاديث النبوية ، التى تشارك القرآن الكريم فى كونها وحيا إلهيا من حيث توضيح بعض الأحكام ، فقالوا ((القرآن هو كلام الله تعالى ،المنزل على محمد صلى الله عليه مسلم والمتعبد بتلاوته))[2]

---

١ - النبأ العظيم " مصدر سابق " ١٤

٢ - النبأ العظيم " مصدر سابق " ١٥

المبحث الثاني :

المصدر الأول لهذا الدين

مما يقتضي التنويه به هنا هو أن الداعية الدكتور دراز حين يتحدث عن تأكيد نسبة القرآن الكريم الى الله ، وأنه نزل على محمد ليبلغه للناس ، لم يفته أن يورد بعض ما قاله خصوم الاسلام ، وما حاولوا بثه من سموم ، وزعم باطل ومضلل ، من أن القرآن من عند محمد ، وأنه تلقنه من أحد المعلمين ، وغير ذلك من أقاويل كاذبة ، فمهمته كداعية اسلامي ، ذا منهج متميز ، برزت في الرد على هؤلاء ، وابطال ما ذهبوا اليه من مزاعم ، بأدلة واضحة ومقنعة عقليا ، ومنطقيا ، ذلك لأنه يرد على أناس لا يؤمنون بالقرآن ، ولا بنبيه الذى أنزل عليه ذلك القرآن ..

ولا يوجد خلاف حول أن " القرآن " وهو مصدر هذا الدين قد جاء على لسان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب " صلى الله عليه وسلم " لأن شهادة التاريخ وأسانيده تؤكد هذه الحقيقة . والسؤال الذى يثور بعد هذه الحقيقة المؤكدة هو :

* من أين جاء به محمد ؟
* وهل هو من عنده ؟
* أم من عند معلم ؟
* ومن هو ذلك المعلم ؟

وهنا نرى الداعية الدكتور دراز يتصدى للاجابة على تلك التساؤلات ، بأسلوب هادئ مقنع فيقول ((ان القرآن صريح في أنه لا صنعة فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولا لأحد من الخلق ، وانما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه))[1]

والعجيب أن يظل بعض الناس في حاجة الى الاستدلال على أنه ليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم رغم أنه ليس من عنده باقراره على نفسه بهذا ،وانما هو وحي يوحى كما سماه القرآن ذاته حيث يقول ..

((واذا لم تأتهم باية قالوا لولا إجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى الى من ربى))[2]

ويقول ..

((قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع الا ما يوحى الى))[3]

---

١ - النبأ العظيم "مصدر سابق" ٢١ ٢ - سورة الأعراف آية (٢٠٣)

٣ - سورة يونس آية (١٥)

ولقد كان من الطبيعي لو كان محمدا هو صاحب القرآن لما نسب بضاعته لغيره لأنه كان سيحسب له إمتدادا لزعامته ، وحتى لو أرجف المرجفون ، فقالوا بأنه نسبه للوحي الالهي سعيا الى إصطلاح الناس ، فإن ذلك قياس فاسد من أساسه ، لأن محمدا صدر عنه ما نسب اليه ، وما هو من عند الله ذاته ، كما أنه كان الصادق الأمين في دعوى الوحي يدل على ذلك الكثير مما يؤكد حقيقة الوحي ومن ذلك :

١) الأزمة النفسية الهائلة التي مر بها صلى الله عليه وسلم حيث أرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة رضى الله عنها ، حيث يظل يصارع القلق والوسواس حتى مضى شهر بأكمله ثم أتاه الوحي مؤكدا طهرها وبراءتها . وماذا كان يضيره لو كان القرآن من عنده فحسم الموقف الحساس فور رواج الأراجيف !؟ ..

٢) ما كان ينزل به الوحي على غير ما يحب ويهوى من تعنيف أو نقد أو عتاب من ذلك ..

((يا أيها النبى لما تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك))[1]

---

١ - سورة التحريم آية (١)

وقولــــــه ..

((وتخفــى فــى نفسـك ما اللــه مبديــه وتخشـــــى
النـاس واللـــه أحــق أن تخشـــاه))[1]

وقولــــــه ..

((أما من إستغـنى فأنت لــه تصـدى وما عليـــك
ألا يزكى ، وأما مـن جاءك يسعى وهــــــو
يخشـــى فأنــت عنـــه تلهـــــى))[2]

إن هــذا التقريــع المؤلــم وعــدم كتمانـــه أو ستره دليل على أنه الوحــى وليس من عند محمد صلى الله عليـــه وســلم .

((وأنت لو نظرت الى هذه الذنوب التى وقع العتـــاب عليهـا لوجدتها تنحصـر فـى شئ واحد وهو أنه عليـــه الصلاة والسلام كان إذا ترجح بين أمريـن ولــم يجـــد فيهمـا إثما اختار أقربهما الـى رحمـة أهلـه وهدايـــة قومــــه ، وتأليـف خصمـه وأبعدهـا عـن الغلظـــة والجفـاء ، وعـن إثارة الشبـه فـــى ديــن اللـه))[3]
ويؤيد ذلك ما حدث حين توفى عبد الله بن أبـــى

---

١ - ســورة الأحــزاب آيـة (٣٧)
٢ - ســورة عبـــس آيـة (٥) وما بعدها .
٣ - النبأ العظيم " مصدر سابق " ٢٦

كبير المنافقين فكفنه الرسول في ثوبه وأراد أن يستغفر له ويصلي عليه ، وصلي بالفعل رغم ما أشار اليه عمر من أن الله نهاه عن ذلك . ولكن حين نزل الوحي ..

((ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره))[1]

التزم صلى الله عليه وسلم به مما يوضح الطاعة التامة وانعدام القصد أو الفرض ..

٣) نزول الوحي أحيانا مجمل دون تفصيل لا يستبين هو وأصحابه تأويله والانتظار الى أن ينزل الله بيانا بعد ، وذلك يؤكد أنه صلى الله عليه وسلم ناقل لا قائل وأنه مأمور لا آمر [2] مثال ذلك حينما نزل قوله تعالى :

((وان تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله))[3]

٤) تلقفه صلى الله عليه وسلم - في أول عهده - الوحي متعجلا ، محركا لسانه وشفتيه مسرعا حافظا

---

١ - سورة التوبة آية (٨٤)

٢ - النبأ العظيم " مصدر سابق " ٢٨

٣ - سورة البقرة آية (٢٤٨)

دون التروى المفترض لو كان الوحى من عنده الى أن نزل قوله تعالى ..

((لا تحرك به لسانك لتعجل به))[1]

وقوله سبحانه ..

((ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه ، وقل رب زدنى علما))[2]

٥) وكذلك فاذا تمعنا صفاته عليه الصلاة والسلام ومجموع أخلاقه العظيمة الرائعة والتى صورته الوقائع والواقع ((إنسانا الطهر ملء ثيابه ، والجد حشو إهابه ، يأبى لسانه أن يخوض فيما لا يعلمه وتأبى عيناه أن تخفيا خلاف ما يعلنه ، ويأبى سمعه أن يصغى الى غلوّ المادحين له : تواضع هو حلية العظماء ، وصراحة نادرة فى الزعماء ، وتثبت قلما تجده عند العلماء ، فانى من مثله الختل أو التزوير أو التغرير ؟ حاشى لله))[3]

((ان صاحب هذا الخلق العظيم وصاحب تلك المواقف

---

١ - سورة القيامة آية (١٦)

٢ - سورة طه آية (١١٤)

٣ - النبأ العظيم " مصدر سابق " ٣٢

المتواضعة بازاء القرآن ، ما كان لأحد أن يمترى فى صدقه حينما أعلن عن نفسه أنه ليس هو واضع ذلك الكتاب وأن منزلته منه منزلة المتعلم المستفيد ، بل كان يجب أن يسجل من هذا الاعتراف البرئ دليلا آخر على صراحته وتواضعه))[1]

٦) يكفى للحكم على أن الوحى هو مصدر القرآن وأن محمدا كان أمينا يصعب أن تجيش نفسه بتلك المعانى القرآنية فلو إجتمع الجهلاء من الملحدين بذكائه الفطرى وبصيرته النفاذة فان ما ينفى دعواهم ان فى القرآن الكريم جانبا كبيرا من المعانى النقلية البحتة التى لا مجال فيها للذكاء والاستنباط ولا سبيل العلمى علمها لمن غاب عنها الا بالدراسة والتلقى والتعلم [2] .

ان التفاصيل الدقيقة التى إحتواها القرآن وتطابق ما جاء فى الرسالات السماوية تؤكد أن الأنباء التاريخية التى احتواها لاجدال فى أن سبيلها النقل لا العقل وأنها تجئ من خارج النفس

---

١ - النبأ العظيم " مصدر سابق " ٣٥ ، ٣٦

٢ - النبأ العظيم " مصدر سابق " ٣٦

لا من داخلها مثال ذلك التطابق بين المدة التى قضاها نوح عليه السلام الموضحة بالقرآن الكريم وتلك التى ذكرت فى سفر التكوين فى التوراه كذلك الأمر بالنسبة لما لبث أهل الكهف فى كهفهم .

٧) كذلك فان النبوءات الغيبية المتسمة بالبت والتحديد فهى بالتأكيد سنةً من سنن الأنبياء المرسلين لبعدها عن المجازفة واللامبالاة وعدم تأسيسها على التوقع والقياس فمن تلك النبوءات (١) ..

١) ما يتعلق بمستقبل الاسلام فى نفسه أو فى شخص كتابه ونبيه من ذلك ما جاء فى بيان أن هذا الدين قد كتب الله له البقاء والخلود ، وان هذا القرآن قد ضمن الله حفظه وصيانته وكذلك يضرب الله الحق والباطل ((فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض))(٢)

((ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها))(٣)

---

١ - النبأ العظيم " مصدر سابق" ٤٢ وما بعدها ٢- سورة الرعد آية (١٧)

٣ - سورة ابراهيم آية (٢٤)

((انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون))[1]

إن مثل هذه النبوءات التي جاءت فى عهد نزول القرآن حين كان ظاهرا لأوضاع لا تبشر بخير هى نبوءات لا يملك ضمانها بشر بل هى من عند الله العزيز القدير ..

وكذلك الأمر بالنسبة لصون النبى صلى الله عليه وسلم وحمايته إذ عصمه الله من المشركين فى مواطن كثيرة حتى وهو قريب جدا من الموت والأمثلة على ذلك عديدة منها وقفته صلى الله عليه وسلم في جفن الردى يوم غزوة حنين ، وما رواه الرواة فى كثير من المواضع عن عصمة الله له .

٢) ما يتعلق بمستقبل الحزبين :

* حزب الله
* حزب الشيطان

فرغم الظروف الصعبة المخيفة التى عاشها المسلمون فى مكة فى صدر الدعوة وإضطرارهم للهجرة الى المدينة المنورة الا أن الخوف لازمهم بسبب ما فرض عليهم من حروب مسلحة فكأنما

---

١ - سورة الحجر آية (٩)

خرجوا من خوف الى خوف أعم ، ومع ذلك وفي هذا الوقت العصيب نزل القرآن ((لينبئهم بما سيكون لهم من الخلافة والملك علاوة على الأمن والاطمئنان))[١] قال تعالى ..

((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما إستخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى إرتضى لهم. وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا))[٢]

كذلك الأمر حين منع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية وجاءهم الوعد الرباني

((لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون))[٣]

((ومن هذا كثير يؤكد أن النبوءات القرآنية إقتحمت حجب المستقبل قريبا وبعيدا وتحكمت في طبيعة الحوادث توقيتا وتأبيدا ، وكان الدهر مصداقا لها فيما قل وكثر وفيما قرب وبعد))[٤]

---

١ - النبأ العظيم " مصدر سابق " ٤٧

٢ - سورة النور آية (٥٥)   ٣ - سورة الفتح آية (٢٧)

٤ - النبأ العظيم " مصدر سابق " ٥٢

٨) أن صاحب هذا القرآن باعتراف خصومه كما ولد أميا نشأ أميا وعاش أميا ولم يكن له معلم من قومه الأميين ، كما أن التاريخ يثبت أنه لم يكن له معلم من غيرهم ، ولو كانت نسبة هذه العلوم القرآنية الى تعليم بشر لوقف عند هذه الطاعنون ولم يجاوزوها ، ولكن ما ينفي ذلك هو الحيرة التي إنتابتهم بالنسبة لنسب القرآن وهل ينسبونه الى تعليم بشر ، أم الى نفس صاحبه أم يجمعون بين الاثنين فيقولون لصاحبه إنه ..

" معلم "

" مجنون "

كما جاء في سورة الدخان .

إن كل هذه الأدلة تؤكد أنه الوحي ذاته مهما أرجف المرجفون . (١)

---

١ - أنظر في نفس الموضوع :

محمد رشيد رضا " الوحي المحمدى "

مالك بن نبي " الظاهرة القرآنية " فقد ساق مالك نفس الأدلة وكان منهجه يتبع نفس منهج الدكتور دراز،،

المبحث الثالث :

الاعجاز فى القرآن

وهنا أيضا يبدأ الداعية الدكتور دراز بالدخول الى موضوع الاعجاز القرآنى ، بمدخل لطيف ليهيئ الأسماع الى التشوق كما يقال مدعما بالأدلة الواضحة ، وسنعرض ما قاله فى هذا الشأن بشكل موجز ، كما هو الحال فيما سبق .

((يتمثل الاعجاز القرآنى فى نواح ثلاث هى ..

* ناحية الاعجاز اللغوى
* وناحية الاعجاز العلمى
* وناحية الاصلاح التهذيبى الاجتماعى))(١)

والقرآن وفق كل المعايير والمقاييس معجزة بيانية لكل الناس ولا هو بالشعر ولا هو محصلة صناعة الكتابة ، ولقد سجل التاريخ عجز العرب فى عصر نزول القرآن ، وهو أزهى عصور البيان العربى عن تقليده .

---

١ - النبأ العظيم " مصدر سابق " ٨٣

والجديد في لغة القرآن ((أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد ، وأمسها رحما بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج ،ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذى هو أحق بها وهي أحق به ، بحيث لا يجد المعنى في لفظهَ الا مرآتهَ الناصعة، وصورتهَ الكاملة ، ولا يجد اللفظ في معناه الا وطنه الأمين ، وقراره المكين ، لا يوما أو بعض يوم ، بل على أن تذهب العصور وتجئ العصور ، فلا المكان يريد بساكنه بدلا ،ولا الساكن يبتغي عن منزله حولا .. وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان))[١] .

أما الأسلوب القرآني فانه يحمل طابعا ((يلتبس معه غيره من ذلك خاصيته تأليفه الصوتي في شكله وجوهره ، أما عن إعجازه البياني فمن دلائله " القصد في اللفظ " " والوفاء بحق المعنى " " وخطاب العامة "" وخطاب الخاصة " " واقناع العقل " و " إمتاع العاطفة " و " البيان " و " الاجمال "))[٢]

أما بالنسبة للسمات البلاغية في القرآن إذا ما عرضناه في

---

١ ـ النبأ العظيم " مصدر سابق " ٩٢

٢ ـ النبأ العظيم " مصدر سابق " ١٠١

فى سورة منه فانه يتسم بالاضافة الى عظمة الثروة المعنوية فى أسلوبه على الرغم من وجازة لفظه وزينة تلك الثروة وجمالها وتناسق أوضاعها وائتلاف عناصرها باحكام هذه الوحدة الفنية البيانية وذلك بتمام التقريب بين أجزاء البيان والتأليف بين عناصره حتى تتماسك وتتعانق أشد التماسك والتعانق . فرغم الكثرة فى الصورة الواحدة والايجاز والاحتواء على البيان إعجازا الا أن الوحدة قائمة والنسيج قوى والتناغم موجود والبنية متماسكة ..

((ان القرآن يعمد تارة الى الأضداد يجاور بينها فيخرج بذلك محاسنها ومساويها فى أجلى مظاهرها ، ويعمد تارة أخرى الى الأمور المختلفة فى أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون فى أحكامها بسوق بعضها الى بعض مساق التنظير أو التفريع أو الاستشهاد أو الاستنباط أو التكميل أو الاحتراس ، الى غير ذلك))(١)

علما أن روعة النظم القرآنى كما علمنا لا تقوم على حسن التجاوز بين الاحاد . بل ربما نراه قد أتم طائفة من المعانى ثم عاد الى طائفة أخرى تقابلها فيكون حسن الموقع

---

١ - النبأ العظيم " مصدر سابق " ١٦١

فى التجاوز بين الطائفتين موجبا لحسن المقابلة بين الأوائل من كل منهما ، أو بين الأواخر كذلك لا بين الأول من هذه والآخر من تلك ، ويعتبر نظام عقد المعانى فى سورة البقرة من أروع الأمثلة فى هذا المجال .(١)

أما بالنسبة للاعجاز العلمى والاصطلاح التهذيبى والاجتماعى فليس هنا مجال تفصيله ويكفى أن القرآن الكريم بشهادة غير المسلمين من العلماء الغربيين الماديين وغير الماديين أمثال " كارل ماركس " والعلامة " جيب " والمستشرقين وهم كثر قد إعترفوا بجلاء بأن هذا الكتاب رسالة إصلاحية تربوية وروحية تأخذ بيد المسلمين لو إلتزموا بها على طريق الفلاح .(٢)

---

١ - النبأ العظيم " مصدر سابق " ١٦٣

٢ - أنظر فى الاعجاز ..

- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى " اعجاز القرآن " دار المعارف مصر ١٩٦٣م .

- محمد أبو زهرة " المعجزة الكبرى القرآن " ٧٣-١٠٣ ، ٣٠٩-٣٢٢ دار الفكر العربى مصر ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

- عبد الكريم الخطيب " الاعجاز فى دراسات السابقين " دار المعرفة بيروت ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م

المبحث الرابع :

الوحى بين المعلم والمتلقى

::

إن معالجة الدكتور دراز لهذه النقطة تفيد أمورا منها حالة الوحي وكيف كان النبى صلى الله عليه وسلم يعيه ، ثم التفرقة من خلال ذلك بين تلك الحالة وحال الصرع النفسى ، وما لحالة الوحى من مميزات الدراية والوحى فنقول ..

بعد أن أثبت الدكتور دراز بما لا يدع مجالا لأى عقل من الاقرار بأن المصدر الأول للقرآن الكريم هو الله عز وجل ، لأن تركيبه ، وصياغته ، وما يحمله من أخبار الأولين ، وتطابق ذلك مع ما جاء فى الكتب السابقة ، هذا فضلا عما أخبر به من وقوع أحداث لم تقع بعد ، وغير ذلك من أمور تدل دلالة يقينية على أن القرآن منزل من عند الله ، وبعد ذلك إنتقل الداعية لتوضيح نقطة أخرى مهمة ، وهى كيفية تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم ، القرآن من الله عز وجل . فيدخل الى الموضوع بمدخل لطيف ، يشد انتباه القارئ ، فيقول : ((لا مناص اذا للباحث عن مصدر القرآن من توسيع دائرة بحثه ، فاذا لم يظفر بمطلبه عند صاحب القرآن ، فى ناحية

وفراسته ، وجب أن يلتمسه ، وأن يظفر به حتما - في ناحية تعليمه ودراسته ، لأن المتكلم بكلاما ، لا يعدو أن يكون قائلا له أو ناقلا ، ولا ثالث لهما .

نعم ان صاحب هذا القرآن لم يكن ممن يرجع بنفسه الى كتب العلم ودواوينه ، لأنه باعتراف الخصوم كما ولد أميا ، وعاش أميا ، فما كان يوما من الأيام يتلو كتابا في قرطاس ، ولا يخطه بيمينه ، فلا بد له من معلم يكون قد وقفه على هذه المعاني ، لا بطريق الكتابة والتدوين - بل بطريق الاملاء والتلقين - هذا هو حكم المنطق .ا.. ستقول فمن هو ذلك المعلم ، نقول : ان هذا هو الشطر الثاني من مسألة القرآن ..

ثم يبدأ للتمهيد لذلك - من التأكيد على أميّة الرسول ، وأمية قومه ، وإتصافهم بالجاهلية كسمة غالبة عليهم ،(١) كما أنه لم يكن له معلم من غيرهم ، فالتاريخ يؤكد بأنه لم يجلس الى أحد أويقابل أحدا ، قبل البعثة ، ليأخذ عنه ، أو يتعلم منه ، وأما ما لقوه بعد البعثة فكان لهم معلما ، وواعظا ، ومنذرا ، ومبشرا .

ثم إن ما في القرآن من أحكام ، وأخبار ، وعقائد وغيرها فوق مستوى تعليم البشر ، وقد أثبتنا ذلك فيما سبق ،

النبأ العظيم " مصدر سابق " ٥٦

وعلمنا أنه من الله سبحانه وتعالى ، وأنه وحي يوحى ، وينزل من السماء ، فمن حامل هذا الوحي ، انه جبريل عليه السلام .. وذلك لأنه ملك ، يختلف في مكوناته الخلقية ، عما هي لدى محمد بن عبد الله،[1] فقد كانت ظاهرة عجيبة تلك التي كانت تبدو على وجه النبي صلى الله عليه وسلم في كل مرة حين ينزل عليه القرآن ..

كانوا يرونه قد إحمر وجهه فجأة وأخذته البرجاء حتى يتفصد جبينه عرقا ، ويثقل جسمه حتى يكاد يرض فخذه فخذ الجالس الى جانبه ، وحتى لو كان راكبا لبركت به راحلته .

وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتا مختلطة تشبه دوى النحل .. ثم لا يلبث أن يسرّى عنه تلك الشدة فاذا هو يتلو قرآنا جديدا وذكرا محدثا .[2]

ولم تكن هذه الظاهرة صناعة وتكلفا ، ولم تكن حالة إختيارية ، كما أنها بعيدة كل البعد عن عارض السبات الطبيعي الذى يعترى المرء في وقت حاجته للنوم حيث كانت تعتريه قائما أو قاعدا أو سائرا ، أو راكبا ، وبكرة

---

١ - النبأ العظيم " مصدر سابق " ٥٦ ، ٥٧

٢ - النبأ العظيم " مصدرسابق " ٧٠ ، ٧١

وحشيا ، كما كانت تعتريه فجأة وتزول فجأة . وتلازمها تلك الأصوات الغريبة ، فهي إذا عارض غير عادى يختلف أيضا عن الأعراض المرضية والنوبات العصبية ، وكانت بالاضافة الى ذلك مبعث نور لا ظلمة ، ومصدر علم لا جهالة ، بل كان يجئ معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمه وتتضاءل الأنوار عند طلعته .[1]

ومن ثم فهي إذا قوة خارجة لأنها لا تتصل بهذه النفس المحمدية الا حينا بعد حين ، وهي لا محالة قوة عالمه لأنها توحي إليه علما ، وهي قوة أعلى من قوته لأنها تحدث في نفسه وفي بدنه تلك الآثار العظيمة ، وهي قوة خيّرة معصومة لأنها لا توحي الا الحق ولا تأمر الا بالرشد ، فماذا عسى أن تكون هذه القوة إن لم تكن قوة ملك كريم.

ذلك هو مبلغ العلم في وصف هذه القوة الغيبية حسبما يهدى اليه البحث العقلي السليم [2] وإن في عشرات المستحدثات العلمية الحديثة في وقتنا الحاضر كالهاتف والتلفاز وما اليهما ما يقرب الصورة إدراكا وفهما الى عقول المتشككين .

أما أولئك الذين غرقوا في حمأة العناء وأولئك الذين

---

١ - راجع النبأ العظيم " مصدر سابق " ٧٢

٢ - راجع النبأ العظيم " مصدر سابق " ٧٣ وما بعدها

لا يجدون طمأنينتهم إلا فى إضطراب الشك فلا سبيل لنا عليهم ولا ينفعهم نصحنا . ولا نملك الا الدعاء لهم بالهداية ..

المبحث الخامس :

أحقية الاسلام وعالميته

لما ثبت أن القرآن من وحى الله طبقا للأدلة السابقة ، وثبت معه أن النبى صلى الله عليه وسلم تلقاه منجما من جبريل من الله ، بقى أن نقول أن هذا الدين لم يرد الله أن يجعله مضافا الى الأديان السابقة ، بل أراده ناسخا للأديان كلها ، وأكد القرآن ذاته على أن هذا الدين هو الحق وما سواه بنزول القرآن وبعثة النبى صلى الله عليه وسلم باطل ، كما قرر القرآن والسنة معا أن تلك الرسالة هى الخاتمة وفى ذلك يقول الله تعالى :

((ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب))(١)

يقول ابن كثير - رحمه الله - ((" ان الدين عند الله الاسلام " اخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد

---

١ - سورة آل عمران آية (١٩)

سوى الاسلام وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به فى كل حين حتى ختموا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى سد جميع الطرق الا من جهة محمد صلى الله عليه وسلم فمن لقى الله بعد بعثة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى " ان الدين عند الله الاسلام "))(1)

وقال تعالى ..

((ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين))(2)

يقول ابن كثير رحمه الله " ومن يبتغى غير الاسلام دينا فلن يقبل منه " الآية أى من سلك طريقا سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه " وهو فى الآخرة من الخاسرين " كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح ..

((من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد))(3)

---

١ ـ تفسير القرآن العظيم للحافظ عماد الدين ابى الفداء اسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى المتوفى ٧٧٤هـ الناشر دار الدعوة فى تركيا ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م ج ١ ٣٥٤ ... ما الآية ... سورة آل عمران آية ١٩

٢ ـ سورة آل عمران آية (٨٥)

٣ ـ حديث صحيح رواه مسلم ج ٢ ٢٢٧

وقال الامام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا عباد بن راشد حدثنا الحسن حدثنا أبو هريرة اذ ذاك ونحن بالمدينة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ..
((تجيئ الأعمال يوم القيامة فتجيئ الصلاة فتقول يارب أنا الصلاة فيقول إنك على خير ، وتجيئ الصدقة فتقول يارب أنا الصدقة فيقول إنك على خير ، ثم يجيئ الصيام فيقول يارب أنا الصيام فيقول إنك على خير ، ثم تجيئ الأعمال ، كل ذلك يقول الله إنك على خير ، ثم يجيئ الاسلام فيقول يارب أنت السلام وأنا الاسلام فيقول الله تعالى إنك على خير بك اليوم آخذ وبك أعطى))(١)

ويقول أبى السعود ((" ومن يبتغ غير الاسلام دينا " أى غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعلى كدأب المشركين صريحا والمدعين للتوحيد مع اشراكهم كأهل الكتابين والمعنى أن المعرض عن الاسلام والطالب لغيره فاقد للنفع واقع فى الخسران بابطال الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها وفى ترتيب الرد والخسران على مجرد الطلب دلالة على أن حال من تدين بغير الاسلام واطمأن بذلك أفظع وأقبح ، وأستدل به على أن الايمان هو الاسلام إذ لو كان

---

١ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير " مصدر سابق " ج ١ - ٣٧٩

غيره لم يقبل والجواب أنه ينفي قبول كل دين يغايره لا قبول كل ما يغايره))[1]

يقول الزمخشري في الكشاف ((" ومن يبتغ غير الاسلام " يعني التوحيد واسلام الوجه لله تعالى " دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين " من الذين وقعوا في الخسران مطلقا من غير تقييد للشياع))[2]

ويقول الله تعالى في تمام كمال الدين الحق .. ((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا))[3]

يقول ابن كثير رحمه الله ((" اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت

---

١ - تفسير أبي السعود المسمى " ارشاد النقل السليم الى مزايا القرآن الكريم " لقاضي القضاة الامام أبي السعود محمد بن محمد العمادي المتوفى ٩٥١هـ ج ١ - ٥٥ - دار احياء التراث العربي ببيروت

٢ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . ابي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ج ١ ٤٤٢ .
شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

٣ - سورة المائدة آية (٣)

عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا " هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون الى دين غيره ولا الى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه الى الانس والجن فلا حلال الا ما أحله ، ولا حرام الا ما حرمه ، ولا دين الا ما شرعه وكل شئ أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلفه كما قال تعالى " وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا " (١) أى صدقا فى الأخبار وعدلا فى الأوامر والنواهى فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى " الآية " أى فأرضوه أنتم لأنفسكم فانه الدين الذى أحبه ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام وأنزل به أشرف كتبه))(٢)

---

١ - سورة الانعام آية (١١٥)

٢ - تفسير ابن كثير " مصدر سابق " ج ٢ - ١٢ ، ١٣

وزاد ابن كثير " وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله " اليوم أكملت لكم دينكم " وهو الاسلام أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الايمان فلا يحتاجون الى زيادة أبدا ، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدا وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدا ..

وقال اسباط عن السدى نزلت هذه الآية يوم عرفه ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات قالت أسماء بنت

عميس حججت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الحجة فبينما نحن نسير إذ تجلى له جبريل فمال رسول الله صلى الله عليه وسلم على الراحلة فلم تطق الراحلة من ثقل ما عليها من القرآن فبركت فأتيته فسجيت عليه بردا كان عليه.

وقال ابن جرير وغير واحد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد يوم عرفه بأحد وثمانين يوما رواهما ابن جرير ثم قال حد ثنا سفيان بن وكيع حد ثنا ابن فضيل عن هارون بن عنترة عن أبيه قال لما نزلت " اليوم أكملت لكم د ينكم " وذلك يوم الحج الأكبر بكى عمر فقال له النبى صلى الله عليه وسلم " مايبكيك " قال أبكانى أنا كنا فى زيادة من د يننا فاما إذا كمل فانه لم يكمل شئ الا نقص فقال " صدقت " ..

ويشهد بهذا الحديث الثابت " أن الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء " وقال الامام أحمد حد ثنا جعفر بن عون حد ثنا أبو العميس عن قيس ابن مسلم عن طارق بن شهاب قال جاء رجل من اليهود الى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين إنكم تقرأون آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا ، قال وأى آية قال قوله " اليوم أكملت لكم د ينكم وأتممت عليكم نعمتى " قال عمر والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم والساعة التى نزلت بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم : عشية عرفة فى يوم جمعة ورواه البخارى عن الحسن بن الصباح عن جعفر بن عون به ورواه أيضا مسلم والترمذى والنسائى أيضا من طرق عن قيس عن طارق قال : قالت اليهود لعمر إنكم تقرأون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيدا فقال عمر أنى لأعلم حين أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أنزلت : يوم عرفة وأنا والله بعرفة .

ـ وذكر ابو السعود هذا الحديث فى تفسيره المجلد الثانى ٧

ويقول الزمخشري في الكشاف ((" اليوم أكملت لكم دينكم " اليوم لم يرد به يوم بعينه وانما أراد به الزمان الحاضر وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية كقولك كنت في الأمس شابا وأنت اليوم أشيب وقيل أريد يوم نزولها وقد نزلت يوم الجمعة وكان يوم عرفه بعد العصر في حجة الوداع. " أكملت لكم دينكم " كفيتكم أمر عدوكم ، وجعلت اليد العليا لكم كما تقول الملوك اليوم كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد اذا كفوا من ينازعهم ووصلوا الى أغراضهم ومباغيهم .

أو أكملت لكم ما تحتاجون اليه في تكليفكم من تعليم الحلال والحرام والتوقيف على الشرايع وقوانين القياس وأصول الاجتهاد " وأتممت عليكم نعمتي " بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين وهدم منار الجاهلية ومناسكهم وإن لم يحج معكم مشرك ولم يطف بالبيت عريانا وأتممت نعمتي عليكم بإكمال أمر الدين والشرائع كأنه قال اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي بذلك لأنه لا نعمة أتم من نعمة الاسلام " ورضيت لكم الاسلام دينا " يعني إخترته لكم من بين الأديان واذنتكم بأنه هو الدين المرضي وحده - ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه))(١)

---

١ - الكشاف للزمخشري " مصدر سابق " ج ١ ٥٩٣ ، ٥٩٤

جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((فضلت على الانبياء بست : أعطيت جوا مع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت الى الخلق كافة ، وختم بى النبيون .))[1]

ومن الآيات المكية الدالة على عالمية الاسلام قوله تعالى ((قل يا أيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون))[2]

يقول ابن كثير (رحمه الله) ((" يا أيها الناس " وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربى والعجمى " إنى رسول الله اليكم جميعا " أى جميعكم وهذا من شرفه وعظمته - صلى الله عليه وسلم - أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث الى الناس كافة))[3]

---

١ - صحيح مسلم شرح النووى المجلد الثالث الجزء الخامس ٥

٢ - سورة الأعراف آية (١٥٨)

٣ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير الجزء الثانى ٢٥٤

جاء فـى تفسـير المراغـى ((بعـد أن حكـى عـز إسمـه ما فـى التوراة والانجـيل مـن نعوتـه ـ صلى الله عليه مسلـم ـ وذكر شرف مـن يتبعـه مـن أهلـها ونيلـهما سعادة الدنيا والآخـرة قـفّـى على ذلك ببيان عمـوم بعثتـه ـ صلى الله عليه وسلـم ـ ودعوة الناس كافـة الى الايمـان بـه وأمـره بتبليغـهـم دعوته فقال :
" قل يا أيها النـاس إنى رسول الله اليكم جميعا " أى قل لجميـع البشـر مـن عـرب وعجـم إنى رسول الله اليكم كافـة لا الى قومـى خاصـة))(١)

وروى مسلم عن أبـى هريرة رضى اللـه عنـه عن النبى ـ صلـى اللـه عليـه وسلـم ـ أنه قـال :
((والذى نفس محمد بيده لا يسمع بـى أحـد مـن هـذه الأمـة يهـودى ولا نصرانـى ، ثـم يموت ولم يؤمـن بالذى أرسلـت بـه الا كان مـن أصحـاب النـار))(٢)

يقول الامام النووى : ((وقـولـه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يسمع بـى أحـد من هـذه الأمـة " أى ممن هـو موجـود فـى زمنى وبعـدى الـى يوم القيامـة فكلهـم ـ يجب عليـه الدخول فى طاعتـه وانمـا

---

١ - تفسـير المراغى الجزء التاسع ٨٤

٢ - صحيح مسلم بشرح النووى المجلد الثالث الجزء الثانى ١٨٦

ذكر اليهودى والنصرانى على من سواهم وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب فاذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابا فغيرهم ممن لا كتاب له أولى والله أعلم))[١]

ويقول الدكتور دراز ..

((والمراد بقوله صلى الله عليه وسلم " لا يسمع بى أحد من هذه الأمة " أى أمة الدعوة وتشمل العرب وغير العرب منذ بعثته الى يوم القيامة وليس المقصود أمة الاجابة))[٢]

ويؤكد الحق جل جلاله على أن الاسلام حق ودعوته عالمية فيقول :

((انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسئل عن أصحاب الجحيم))[٣]

---

١ - صحيح مسلم بشرح النووي المجلد الأول الجزء الثانى ١٨٨

٢ - أنظر كتاب المختار من كنوز السنة النبوية للدكتور محمد عبد الله دراز ٨٩

٣ - سورة البقرة آية (١١٩)

يقول أبو السعود في تفسيره رحمه الله ((" انا أرسلناك بالحق " أى متلبسا بالقرآن كما فى قوله تعالى " بل كذبوا بالحق لما جاءهم " أو بالصدق كما فى قوله تعالى " أحق هو " وقوله تعالى " بشيرا ونذيرا " أى أرسلناك متلبسا بالقرآن حال كونك بشيرا لمن آمن بما أنزل عليك وعمل به ونذيرا لمن كفر به وأرسلناك صادقا حال كونك بشيرا لمن صدقك بالثواب ونذيرا لمن كذبك بالعذاب ليختاروا لأنفسهم ما أحبوا لا قاسر لهم على الايمان فلا عليك ان أصروا وكابروا " ولا تسأل عن أصحاب الجحيم " ما لهم لم يؤمنوا بعد ما بلغت ما أرسلت به وقرئ لن تسأل وما تسأل وقرئ لا تسأل على صيغة النهى إيذانا بكمال شدة عقوبة الكفار وتهويلا لها كأنها لغاية فظاعتها لا يقدر المخبر على إجرائها على لسانه أولا يستطيع السامع أن يسمع خبرها . وحمله على نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه مما لا يساعده النظم الكريم والجحيم المتأجج من النار وفى التعبير عنهم بصاحبيه الجحيم دون الكفر والتكذيب ونحوهما وعيد شديد لهم وايذانا بأنهم مطبوع عليهم لا يرجى منهم الايمان قطعا))(١)

وقال تعالى ((وما أرسلناك الا رحمة للعالمين))(٢)

---

١ - تفسير أبو السعود ج ١ " مصدر سابق " ١٥٢

٢ - سورة الأنبياء آية (١٠٧)

يقول ابن كثير ((" وما أرسلناك الا رحمة للعالمين " يخبر تعالى أن الله جعل محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين أى أرسله رحمة لهم كلهم فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد فى الدنيا والآخرة ومن ردها وجحدها خسر الدنيا والآخرة))(١)

ويقول أبو السعود فى تفسيره ((" وما أرسلناك " بما ذكر وبأمثاله من الشرائع والأحكام وغير ذلك من الأمور التى هى مناط لسعادة الدارين " الا رحمة للعالمين " هو فى حيز النصب على أنه استثناء من أعم العلل أو من أعم الأحوال أى ما أرسلناك بما ذكر لعلة من العلل الا برحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة وما أرسلناك من الأحوال الا حال كونك رحمة لهم فان ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام مصالحهم فى النشأتين ومن لم يغتنم مغانم آثاره فانما فرط فى نفسه وحرمه حقه لأنه تعالى حرمه مما يسعده وقبل كونه رحمة فى حق الكفار آمنهم من الخسف والمسخ والاستئصال حسبما ينطق به قوله تعالى " وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم "(٢)))(٣)

---

١ - تفسير ابن كثير "مصدر سابق" ج ٣ ٢٠١ - ٢- سورة الأنفال آية (٣٣)

٣ - تفسير أبو السعود "مصدر سابق " ج ٣ ٨٩

وقال تعالى ((وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا))[١]

يقول ابن كثير فى قوله تعالى ((" وأرسلناك للناس رسولا " أى تبلغهم شرائع الله وما يحبه الله ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه . " وكفى بالله شهيدا " أى على أنه أرسلك وهو شهيد أيضا بينك وبينهم ، وعالم بما تبلغهم إياه وبما يردون عليك من الحق كفرا وعنادا))[٢]

قال تعالى ((وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا))[٣]

يقول ابن كثير رحمه الله ((يقول تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم تسليما" وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا" أى الا الى جميع الخلائق من المكلفين كقوله تبارك وتعالى " قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا "[٤] " تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا "[٥] " بشيرا ونذيرا " أى تبشر من أطاعك بالجنة وتنذر من عصاك بالنار))[٦]

---

١ - سورة النساء آية (٧٩)
٢ - تفسير ابن كثير "مصدر سابق" ج ١-٥٢٨
٣ - سورة سبأ آية (٢٨)
٤ - سورة الاعراف آية (١٥٨)
٥ - سورة الفرقان آية (١)
٦ - تفسير ابن كثير " مصدر سابق " ج ٣ - ٥٣٨

ففي النصوص السابقة دليل واضح على أحقية الاسلام وعالميته وعموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ..

وأن جميع الناس مخاطبون بهذه الرسالة منذ بعثته عليه الصلاة والسلام .. وحتى قيام الساعة .

الفصل الثالث

==========

العقيدة والشريعة فى الاسلام

- عقيدة التوحيد جذورها وتطورها .
- العقيدة ومنهجها .
- دعوة الاسلام الى الطاعات العملية .

" التشريع "

....

المبحـــث الأول :

عقيدة التوحيد جذورها وتطورها

أ - دعائمهـــا فـــى العقـــل :

يقول الدكتور دراز ..

((إن ظاهرة التدين تستند فى أصلها إلى مبدأين مرتكزين فـــى بداهة العقول ، وهما (السببية والغائية) وهذان القانونـــان متى فهما على كمالهما انتهيا الى أسمى العقائد الدينية ، عقيدتـــي التوحيد والخلود ، وأن عقائد الشرك والوثنية والفناء انما هـــي وليدة ضرب من الغفلة ، أو الكسل العقلي يقف بها فى بعـــض الطريق)) (١)

فيلاحظ أنه استغل قانونى " السببية والغائية " لاثبات أن ظاهرة الدين مرتبطة بوجود الإنسان ، وأنها نزعة فطرية فيه كباقي النزعـات والغرائز الفطرية ، وأن العلماء وبعض الفلاسفة إن كانوا قد استدلـوا بهذين القانونين على حدوث العالم ، وبالتالي الى وجود إلـــه قادر ، هو الذى أحدث هذا العالم ، وأنشأه من العدم ، وأن ..

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ١٠٤-١٠٥

العالم بكل ما فيه من موجودات حادث ، وأن التدين سمة من سمات الإنسان ، ونزعة من نزعاته ، دون غيره من المخلوقات ، فهي مرتبطة بوجوده على ظهر البسيطة وليست نزعة أو صفة مكتسبة .. (١)

ولكنه أحسن استثمار هذين القانونين في اثبات ..

أولا : حدوث العالم

ثانيا : وجود الله

وان لم يصرح بذلك في كلامه ، ولكنهما يفهمان ضمنا ..

وثالثا : اثبات أن ظاهرة التدين مرتبطة بوجود الانسان وأن دليل اثبات ذلك عن طريق العقل هو استعمال هذين القانونين .

ثم يقول الدكتور دراز ..

((نعم ان طاقة البشر ، وطبيعة المخلوق ، أعجز من أن تحصى مراحل الأسباب والغايات مرحلة مرحلة ، وتتابع سلسلتها حلقة حلقة ، حتى تشهد بداية العالم ونهايته ، ولذلك يئست العلوم التجريبية من معرفة أصول الأشياء وغايتها الأخيرة ، وأعلنت عدولها عن هذه المحاولة ، وكان قصارها أن تخطو خطوات معدودة إلى الأمام أو إلى الوراء ، تاركة ما بعد ذلك إلى ساحة الغيب ، الذي يستوي في الوقوف دونها العلماء والجهلاء)) (٢)

---

١ ـ أنظر كتاب الاسلام في عصر العلم . للأستاذ محمد فريد وجدي ٢٧٥ ، ١٠٤

٢ ـ كتاب الدين " مصدر سابق " ١٠٥

وهو يردّ بذلك على أصحاب النظريات المادية أو الحسية الذين يخضعون كل ما فى الوجود إلى المدركات الحسية ، أو ...... التجريبية ، مشيرا بذلك إلى أن طاقة الإنسان محدودة ، وأنها أعجز من أن تدرك بداية العالم ونهايته .

ولكن عجز الإنسان عن معرفة أطوار الكائنات فى ماضيها ومستقبلها يقابله يقين ، وضرورة عقلية لا مناص من الاعتراف بها طوعا أو كرها ، وهى أنه مهما طالت سلسلة الأسباب الممكنة ، والغايات الجزئية ، فانه لابد لتفسيرها وفهمها ومعقولية وجودها ، من إثبات شئ آخر ، يحمل فى نفسه سبب وجوده وبقائه ، بحيث يكون هو الأوْل الحقيقي الذى ليس قبله شئ ، والغاية الحقيقية التى ليس بعدها شئ ، وهو الأزلي الواجب الوجود ، الذى لا أول له ولا آخر ، وهو الله سبحانه وتعالى ، الذى خلق وأبدع هذا الوجود من العدم .

هذه الضرورة العقلية لا مناص من التسليم بها ، ولا مجال لأحد أن يكابر فيها ، اللهم الا اذا كان أخرق أو أرعن ، أو غير سوي الادراك .

ب - عواملها فى الوعى المتيقــــظ :

ثم ينتقل الدكتور دراز بعد ذلك الى الحديث عن العوامــــــل والأسباب التي هيأت هذه الحقيقة الكامنة فى أعماق النفس الإنسانية ، ورفعتها من الأعماق الى السطح ، أو بالأصح إلى الوعي المتيقـــــظ فيقـــــول ..

((فاذا سألنا هنا عن نشأة العقيدة الالهية ، فليس سؤالنا عـــــن منشأ هذه الضرورة الكامنة فى العقل الباطن ، والتي هى مــــــن الأوليات التي لا يسأل عن مصدرها ، وانما السؤال عن العوامــــل والملابسات التي تكون قد رفعت هذه الحقيقة إلى مستوى الوعـــــي المتيقظ ، ثم لم تكتف بابرازها أمام العقل قضية نظرية ، بل حولتها إلى فكرة حية ملهبة للمشاعر ، وطبعت موضوعها بطابع خاص ، يجعله ذاتا علوية تتوجه إليها القلوب بالرغبة والرهبة ، والدعاء والخضوع))(1)

ثم يقول .. بأنه ليس الغرض من سؤالنا هنا عن نشأة العقيـــدة الإلهية ، هو السؤال عن منشأ هذه الحقيقة والضرورة الكامنة فـــــي العقل الباطن ، لأن وجودها فى العقل الباطن من الأوليـــــات، والضرورات لا يسأل عنها وقد سبق ذكر ذلك فى الفصل الأول ..... وانما السؤال عن العوامل التي أبرزتها من العقل الباطن ، إلـــــى

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ص ١٠٦

وانظر أيضا كتاب "الاسلام فى عصر العلم" للأستاذ /محمد فريد وجدى ٤٠٨ - ٤١٠

الوعي المتيقظ ، بل لم تكتف بابرازها كقضية نظرية ، وانما حولتهـــا إلى فكرة حية ، ملهبة وخلابة للمشاعر ، حيث ارتقت بها ، وربطتها بالذات العلوية ، الواجبة الوجود ، التي تتوجه اليها القلـــــوب بالرغبة والرهبة ، والخضوع والخشوع ، والدعاء والرجاء .

ترى ما هى تلك العوامل والدواعى والملابسات التي حركت هـــذه الحقيقة من اللاشعور أو العقل الباطن الى الشعور والوعى المتيقظ ؟

ولبيان الأسباب الخاصة باظهار العقيدة الإلهية وللوقوف جيـــدا عليها لا بد من التعرض لدراسة الفكرة من خلال وضعها التاريخـــي فانه لا يظهر عمقها ، ولا تظهر الدراسات المناوئة لأصالة تلـــك الجذور ما لم نتابع باختصار الوضع التاريخى لتلك العقيدة ومـــا قيـــل عنهـــا .

جـ - الوضع التاريخي للمسألة :

يقول ..

((جمهور الباحثين في هذه المسألة لا يطلبون من بحثهم الوقوف على الأسباب العامة التي تتيسر دراستها ، ويمكن التحقق من وجودها في كل عصر ، والتي يعقل أنها هي أيقظت ، ولا تزال توقظ ، الحاسة الدينية في الانسان ، بل يفهمون من كلمة " نشأة الدين " الصورة التي ظهرت فيها الأديان أول ما ظهرت في الوجود ، فالأولية التي يريدون تقريرها ، ليست أولية في الترتيب المنطقي فحسب (كتقدم المقدمات على النتائج) وليست أولية تاريخية نسبية (أعني بالاضافة الى العصور المعروفة) بل هي أولية زمانية مطلقة ، تقترن بظهور الانسان على هذا الكوكب))(١)

ولا شك أن المنهج الذى سلكه الباحثون في الوصول لهذه النتيجة وهو التنقيب عن أديان الأمم القديمة ، أو أديان الأمم المعاصرة ، غير المتحضرة حتى اذا ما انتهى بهم السير في تلك العصور المظلمة ، الى أقدم مظهر معروف من مظاهر التفكير الديني ، اعتبروه صورة مطابقة لما كان عليه الانسان الأول ، من ظاهرة التدين ، ويمكن عندئذ أن يقال .. انها الصورة الأولية لنشأة الدين .(٢) وهم يتناولون نشأة الدين بصفة عامة بصرف النظر عن

---

١ ، ٢ - كتاب الدين " مصدر سابق " ١٠٦

سبق فكرة عن أخرى مثل سبق التوحيد علـى أشكال الوثنيـة .

وقد انقسم الباحثون فى الموضوع الى شعبتين عظيمتين ، تسيران فى خطين متعاكسين ..

فريـق :

ذهب الى أن الدين بدأ فى أول نشأته فى صورة خرافة ووثنية ، ثم أخذ فى الرقى ، برقى الانسان على مدى العصور ، وتعاقب الأجيال . حتى وصل فيه الى درجة الكمال بالتوحيد . مثلما تدرج نحو الكمال فى علومه وصناعاته ، حتى يزعم بعضهم أن عقيدة (الإله الأحد) عقيدة حديثة ، وإنها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامى ، وهذه النظرية نادى بها أنصار مذهب " التطور والارتقاء " الذى ساد فى أوربا فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وذلك فى أكثر من فرع من فروع المعرفة .

وفريق آخر :

قرر بالطرق العلمية بطلان هذا المذهب ، وأثبت العكس ، وهو أن عقيدة الخالق الأكبر هى أقدم

ديانة ظهرت في البشر ، مستدلاً على ذلك بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم في القديم أو الحديث ، وما الوثنيات الا أعراض طارئة ، أو أمراض متطولة ، دخيلة على هذه العقيدة الالهية العالمية الخالدة ، وهذه نظرية ..

" فطرية التوحيد واصالته " (١)

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ١٠٧

موقف الدكتور دراز من المشكلة :

وهنا تظهر شخصية الدكتور دراز كمفكر اسلامى وداعية بارز له شخصيته المستقلة ، التى لا تخضع لهؤلاء ، ولا تتأثر بمقولة أولئك ، بل تناقضهم وتثبت خطأهم فى المنهج .. والغاية فيقول ..

((غير أنه مهما تتفاوت النتائج فى نظر المذهبين (التطوري والفطري) فانهما متفقان على موضوع البحث ، وهو تحديد صورة العقيدة " البدائية " الحقيقية ، وعلى منهاجه ، وهو دراسة الشعوب المتأخرة والأمم الغابرة ، ونحن نرى أن وضع المسألة على هذا الوجه ومحاولة حلها من هذا الطريق ، ينطوي على خطأ مزدوج ، خطأ فى الغاية ، وخطأ فى الوسيلة .(١)

ثم يستطرد مبينا الخطأ فى كل من الغاية والوسيلة ، بما مجمله من حيث الغاية ، وهى تحديد الأصل الأصيل للعقيدة ، والمظهر الذي ظهرت به فى أول الأزمنة باطلاق ، فذلك لأن هذه المنطقة " البدائية المحضة " اعتبرها العلم شقة حراما ، فحرمها على نفسه ، وأعلن خروجها عن حدود عمله ، واقتحامها الآن باسم العلم يعتبر تعاملا بصك مزيف ، وتستّر خلف ثوب مستعار ، وكل حكم يصدر تحت هذا الاسم يعتبر صادرا عن قاض معزول ، أو بالأحرى دون سند وحجة تؤيده ، وقد اعترف بذلك من قبل علماء تاريخ الأديان ، وعلماء الآثار الخاصة بديانة العصر الحجري ، وما قبله ، واعتبروا هذه ....

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ١٠٨

الفترة الزمنية لا تزال مجهولة جهلا تاما ولا سبيل للخوض فيها إلا ... بضرب من التكهن ، والرجم بالغيب .

وأما من حيث المنهج ، وهو الاستدلال على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة ، المتخلفة عن ركب المدنية ، فذلك لأنه مبني على افتراض أن هذه الأمم كانت منذ بدايتها على الحالة التي وصل إليها البحث والدراسة ، وأنها لم تمر بها أدوار متقلبة ، وهو افتراض لم يقم عليه دليل .. بل ان الذي أثبته التاريخ واتفق عليه المنقبون عن آثار القرون الماضية ، هو أن فترات الركود والتقهقر التي سبقت مدنياتنا الحاضرة كانت مسبوقة بمدنيات مزدهرة، وان هذه المدنيات قامت على أنقاض مدنيات بائدة ، قريبة أو بعيدة، في أدوار تتعاقب على البشرية ، كتعاقب فصول السنة على الطبيعة ، بحيث يصعب أن نحكم بصفة قاطعة بأيهما بدأت دورة الزمان ، وليس أحدهم أولى بالحكم من الآخر فكذا يقال بشأن العقائد الدينية))(١)

وبذا ظهر لك مدى ثبات الفرض الذي بنيت عليه البحوث الحديثة كلها ، وأنها أسست على جرف هار لا تطمئن اليه ولا تقف عليه الأقدام .. يستوي في ذلك المذهب التطوري والفطري .. غير أن المذهب التطوري يختلف عن سابقه بأنه مبني على افتراض آخر لم يقم عليه أيضا دليل .. وهو قياس الملكات والأحاسيس الروحية ،

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ١٠٨-١٠٩

على القوى البدنية والمكتسبات العقلية والتجريبية ، فكما أن الإنسان ينتقل فى نموه البدني من الضعف الى القوة ، وفى نموه العقلي من الجهالة إلى المعرفة ، قد يلوح أيضا أنه بدأ حياته الروحية بالسخف والخرافة ، ولم يصل إلى العقيدة السليمة إلا بعد جهد وعناء . (١)

ولا بد أن نستفسر مع الدكتور عن مدى صدق هذه القضية ، وعن الأصل الذى بنى عليه هذا القياس ، قياس الغائب على الشاهد ، وهل الغائب يماثل المشاهد ، ويساويه من كل الوجوه ، أو حتى فى معظمها ، كي يصح القياس .. فيقول ..

((ونحن نسأل قبل كل شئ عن الأصل الذى بنى عليه هذا القياس؟ هل صحيح أن قوى النفس المختلفة تسير فى نموها على قدم المساواة. وأن حياة الناس الروحية تمشى فى كل أدوارها جنبا إلى جنب مع حياتهم المادية ؟ .. أو لسنا نرى هاتين الظاهرتين تسيران أمامنا فى طريقين متعارضين ؟ .. فاذا صح ما يقال من أن الانسان كان فى بدايته قانعا بكهف يؤويه ، وجلد حيوان يستر به بشرته ، وشئ من الأعشاب يدفع مخمصته ، ألا تكون قلة مشاغله ومطامحه المادية قد تركت فى نفسه فراغا عميقا للتأملات التى ترهف حاسته الدينية ، وتنمى مشاعره الروحية العليا ، كما أن اشتغال الناس فى عصور المدنيات بترف الحياة الجثمانية ، يؤدي إلى عكس هذه النتيجة ، ذلك

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ص ١٠٩

أن الغرائز المتقابلة تضعف وتتقلص ، بقدر ما تنمو وتقوى أضدادها كلفتي الميزان ، لا ترتفع احداهما إلا انخفضت الأخرى .)) (١)

فقد بين أن النزعات والغرائز المطبوعة فى النفس البشرية ، الروحية منها والمادية ، لا تسيران جنبا إلى جنب ، ارتفاعا وانخفاضا ،ونماء وضعفا ، بل العكس هو الصحيح ، كلما ارتفعت احداهما انخفضت الأخرى ، ككفتي الميزان ، فحين تنمو النزعات الروحية يقل الإقبال على الغرائز المادية فتضعف ، واشتغال الناس بترف الحياة خلال المدنيات المزدهرة ، ينمي الغرائز المادية ، ويضعف النزعات الروحية، ألا ترى بذلك أنهما يسيران فى خطين متعاكسين ، وليسا متوازيين ؟ .. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهناك فارق آخر بينهما ، هو عدم اشتراكهما فى الحقيقة النوعية حتى يمكن أن يقاس أحدهما على الآخر . يقول ..

((على أن قليلا من التأمل يهدينا الى قياس الأديان على الفنون والصناعات ، وانما هو محاولة للجمع بين أمرين لا تؤلف بينهما حقيقة نوعية مشتركة ، بل تتباين طبائعهما ووسائلهما ، فبينما حقائق العلوم ثروة واسعة ترحل النفس فى طلبها واكتسابها ، ويتطلب اقتناؤها وتنميتها علاجا ومثابرة ، واستعانة بأدوات منفصلة فى غالب الأمر ، نجد أن حقيقة الدين عناصرها قارة بين الجوانح ،

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ١١٠

وتعرض دلائلها لائحة أمام الحس ، حتى ان التفاتة يسيرة لتكفي للظفر بها في حدس سريع ، كالبرق الخاطف ، وليس إدراك هذه الحقيقة الكبرى محصول ادراكات لحقائق الكون ودقائقه الجزئية ، ولا هو أشق منها كما ظنّ ، بل انه يتقدمها ، ويمهد لها ، في نظرة كلية تلم بها جملة ، قبل أن تفحص أجزاءها وتفصيلاتها ، ولذلك يستوي العالم والجاهل في أصل هذا الاحساس فكل منهما بمقدار .. فهمه يجد في الكون ما يبهره ، ويستولي على مشاعره))[1]

فهو بهذا يبين أن هناك فرقا شاسعا بين حقيقة كل من النزعات الروحية ، والنزعات المادية ، بل وتباين في النوع على الوجه الذي يبطل معه قياس أحدهما على الآخر ، ثم يزيد هذه المسألة إيضاحا حين يقول ..

((ولقد كان مقتضى الوضع السليم ، في تعرف ما كانت عليه بداية الأديان ، فيما قبل التاريخ ، أن نسترشد في مقارنتها - لا بسير الفنون والصناعات - بل بسير الديانات المعروفة ، منذ طفولة التاريخ حتى اليوم ، ألا واننا نعرف بالاستقراء أن كل واحدة من هذه الديانات بدأت بعقيدة التوحيد النقية ، ثم خالطتها الشوائب والأباطيل على طول العهد ، فالأشبه أن تكون هذه سنة

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ١١٠

التطور فى الديانات كلها : أن بدايتها خير من نهايتها.))[١]

وهو بهذا قد أثبت قضية هامة ، وهى أن " بداية الأديان خير من نهايتها " وليس المقصود بذلك هو الانتقال من الصواب إلى الخطأ أو التطور ، فى حقيقتها التنزيلية ، أو التشريعية ، فحقيقة الأديان السماوية ثابتة من هذه الناحية ، وإنما المقصود التدرج التصاعدى أو التنازلى ، فى مراتب الوفاء والعمل ، والتطبيق من المتدينين أنفسهم ، أتباع تلك الأديان .. ألا ترى مدى صدق هذه القضية ، وانطباقها على تابعي الأديان السماوية الثلاث .. فاليهود والنصارى تخلوا عن الإلتزام بتعاليم الإنجيل والتوراه ، بل حرفوهما والمسلمون تخلوا فى عصورهم المتتابعة عن الالتزام بما كان عليه السلف الصالح .. الا قليلا منهم فى كل عصر .

ثم أخذ الدكتور بعد ذلك ينقد نظرية التطور ، من حيث انطباقها على الدين ، وجعله يخضع لها كغيره من العلوم والفنون الأخرى ، لاختلافهما فى الحقيقة والجوهر ، ولا ينبغي أن نقيس تطور الدين بتطور العلوم ، بالمقاييس السطحية ، والا فسنجد أن هذا القياس ينقلب حجة فى يد أنصار " الفطرية " ذلك أن معنى التطور فى العلوم والفنون - كما فى كل كائن حيّ - هو أنها بدأت فى صورة ساذجة ، متحدة متجانسة ثم انتقلت بالتدرج إلى نوع

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ١١١

من التكثر ، والتركيب ، تزداد به تعقيدا كلما بعدت عن أصلها .. وتطبيق هذا المفهوم على العقيدة الالهية ، يقتضي بالتالى أنها سارت من الوحدة الى الكثرة ، ومن النقاء ، والسهولة ، واليسر ، الى التعقيد بالاضافات الأسطورية ، والنزوات الخيالية ، التي لا ضابط لها من العقل السليم ، وكذا إلى التشتت والتفرق .

ثم إن التطور بمعناه الأدبي ، هو الترقي من النقص إلى الكمال ، فهو بهذا ليس قانونا عمليا ، ولا سنة طبيعية مطردة ، وإنما هي إحدى القيم العليا ، والخلجات الوجدانية ، التي تطمح اليها النفوس . وتشرئب اليها الأعناق .. فتبلغها حينا ، وتنحسر عنها أحيانا ، فكل داعية ، وكل مصلح اذا لم يكن مؤمنا بامكانية تبدل الأخلاق والنزعات ، والعادات نحو الرقى والرفعة ، لقصرت همته عن مواصلة رسالته ، بل وبطل كل تشريع يهذب من طبائع البشرية ، ويوجهها الوجهة الصحيحة ، وكان من العبث بذل أدنى مجهود للتقدم والرقى .(١)

---

١ - كتاب الدين " مصدر سابق " ١١١ ، ١١٢

أى منهج يمكن أن نتبعـــه ؟؟

وفى النهاية نرى أن التحليل النفسى ، وشواهد التاريخ والتطـور بمفهومه الصحيح ، لا يقف أى منهم مؤيّدا لنظرية التطور ، الـــتى جعلت الخرافة والأسطورة هى بداية الأديان ، كما أنها وان وقفـت بجانب النظرية الفطرية ، لكنها لا ترقى بها إلى الحقائق التاريخيـة المفروغ من صحتها ، ولذا وجدنا نظرية ثالثة وهى الأقرب الـــــى الصواب بل هى الصواب عينه ، يمكن إعتبارها فى هذه المسألة ، وذلك أن الرشد والضلال فى الفكرة الدينية ، ليستا ظاهرتين متعاقبتين فقط ، صعودا وانحدارا ، على مدى العصور ، بل هما ظاهرتـــان متعاصرتان ، وموزعتان فى كل أمة وجيل ، تبعا لاختلاف الأفـراد ، وتفاوتهما فى درجات استقامة الحدس العقلي ، ونبل الحــــــس الباطني .. فكل جيل فيه هذا وذاك .. المستقيم والضال .. والمخطئ والمصيب .. ثم يقـــــول ..

((هكذا عجزت وسائل العلوم أن تقدم لنا بيانا شافيا يطمئن إليـه القلب عن ديانة الإنسان الأول ، أما من أحب أن يسترشد بنصـوص الكتب السماوية ، فانه سوف يجد فيها ما يشد أزر القائلين بأوليـة العقيدة الإلهية الصحيحة ، لا في الغريزة فحسب " فطرة اللـــه التي فطر الناس عليها(١) " بل فى التطور الزماني كذلك ، فهـــذه النصوص تنادي بأن الناس بدأوا حياتهم مستقيمين على الحــــق

---

١ - سـورة الـروم آيـة (٣٠)

مؤتلفين عليه ، وأن الانحراف والاختلاف إنما جاء عرضا طارئا بعد ذلك : " وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا " (١) وأن استمرار هذا الخلاف ، واتساع شقته إنما كان بتأثير الوراثة ، وتلقين كل جيل عقيدته للناشئين فيه : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء " (٢) . وإلى ذلك كله فإن الكتب السماوية متفقة على أن الجماعة الانسانية الأولى ، لم تترك وشأنها ، تستلهم غرائزها وحدها ، بغير مرشد أو مذكر ، بل تعهدتها السماء بنور الوحي من أول يوم ، فكان أبو البشر " آدم " وهو أول الأفذاذ الملهمين ، وأول المؤمنين الموحدين وأول المتضرعين الأوابين .))(٣)

وهنا تظهر شخصية الدكتور ، المتمثلة فى المفكر الاسلامى ،والذى ارتقى بفكره فاستوعب تلك النظريات الحديثة " الفطرية والتطورية " وتصدى لها فيما ذهبت اليه فى موضوع نشأة العقيدة ، وأثبت أن وسيلتها فى الاستدلال واهية لا أساس لها ، وأحال الموضوع الى نصوص الكتب السماوية ، لمن أراد أن يستأنس بحقيقة الأمر فى مثل

---

١ - سورة يونس آية (١٩)

٢ - صحيح البخارى ج ٢ ٩٧

٣ - كتاب الدين " مصدر سابق " ١١٣

تلك الأمور .. وأن القرآن الكريم خير مرشد في هذا السبيل .. كما يلاحظ أنه أثبت أن نزعة الدين لدى الانسان هي نزعة فطرية قارة في الطبيعة البشرية ، وليس من الانصاف عند البحث عن نشأتها قياسها على العلوم والصناعات في كل أدوارها التاريخية . لأنهما ظاهرتان متعاكستان .. فإدراك الحقيقة الدينية أمر يستوى فيه العالم والجاهل .. وهو بهذا يخالف ما ذهب اليه الأستاذ عباس محمود العقاد حين قال ..

((.. وينبغي أن تكون محاولات الانسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات .))[1]

---

١ - أنظر موسوعة العقاد الاسلامية ، كتاب "الله" ٢٥ دار الكتاب العربي / بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٠م

المبحث الثانى :

العقيدة ومنهجها

::::::::::::::::::::::::::::::::

أ - عبادة الاله الواحد :

يعرض القرآن الكريم دعوة الاسلام لعبادة الاله الواحد ، بطريقته المنطقية لا على أنها دعوة محمدية مستقلة ، تنافس الموسوية والمسيحية ، وتنازعها الحقيقة ، وانما يقرر أن المسلم هو من يؤمن فى نفس الوقت بموسى وعيسى وجميع رسل الله ، ويوقرهم من غير تمييز بينهم ..

((آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله))(1)

كما يؤمن بمبادئهم جميعا ، أى أنه يستسلم لله ولارادته التي أعلنت متتابعة على ألسنتهم ..

((قل آمنا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي

---

١ - سورة البقرة آية (٢٨٥)

موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحـــد
منهـــــم ..))(١)

ان القرآن يدعو إلى العودة إلى الوحدة الدينية الأصيلة ، التي يستجيب لها ويعتز بها ذوو النفوس السامية ، وتنفتح لها القلـــوب المتلهفـــــة .

ويوضح بعد ما سبق ، أسلوب القرآن الكريم حول الاقناع بفكـــرة الإله الواحـــد .. فيقـــول ..

((تنحصر هذه الفكرة الرئيسية : فى أن صانعا يتصف بالكمال المطلق ، والقوة المطلقة ، والخير المطلق ، خلق كل شئ فـــي الوجود ، وأخضعه لارادته خضوعا مطلقا ، وسر نجاح هذه الفكـــرة أنها من ناحية ، تنسجم تماما مع الوحدة الدينية التي يستهـــدف الإسلام إعادتها من جديد إلى الوجود ، حيث أن الفرقة لا تنشـــأ إلا فى التعدد :

" قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخـذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولـــوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمـــون " (٢)

---

١ - ســـورة آل عمران آيـة (٨٤)

٢ - ســـورة آل عمران آيـة (٦٤)

" ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا ، وأنزل اليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون " (١)

ومن ناحية أخرى فان سمو هذه الفكرة فوق كل الاعتبارات الضيقة في الديانات المختلفة ، تذكّر الناس بالحقيقة الخالدة التي عرفوها أو التي يسهل عليهم معرفتها)) (٢)

ثم يشير إلى حقيقة ربما تغيب عن أذهان الكثيرين ، هي أن العرب فى الجاهلية ، كانوا يعرفون أن هناك إلها أعظم خالق للكون ، وما الأصنام والأوثان التي اتخذوها وتقربوا اليها ، أو عبدوها ما هى إلا زلفى تقربهم إلى هذا الإله الأعظم فيقول ..

((.. والواقع أنه حتى العرب المشركين كانوا يعترفون بوجود إله أعظم ، خالق للكون ، ومدبر لشؤونه ، ولا يرجع هذا الاعتراف فقط إلى بعض الآثار المحفوظة عندهم من ديانة ابراهيم واسماعيل ، وانما توجد نواته فى أعماق النفس الانسانية ..

" ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ليقولن الله " (٣)

إلا أن هذا التوحيد الأولي ، أو هذه الديانة الفطرية كما

---

١ - سورة العنكبوت آية (٤٦)

٢ - كتاب الدين " مصدر سابق " ١١٣

٣ - سورة العنكبوت آية (٦١)

يسميها القرآن لم تكن إلا فكرة نظرية محجوبة ، ومغمورة فى الواقع تحت معتقدات وعبادات ، كانت تؤدي إلى عدد لا يحصى من الآلهة ..

" وما يؤمن أكثرهم بالله وهم مشركون " (١)

فهم لا يدعون الله إلا اذا ألم بهم خطر كبير ، لأن اتصالهم الوثيق بالطبيعة ، ومظاهرها المختلفة يجعلهم ينسبون بعض الفضل إلى النجوم ..

" وانه هو رب الشعرى " (٢)

وكانوا يعبدون الملائكة ويزعمون أنهم بنات الله .

ولقد استطاعت العقليات الخيالية أن تخترع تدريجيا عددا لا يحصى من الآلهة الصغيرة التي وضعوها فى مرتبة أقل من الخالق ، وجعلوا لها اختصاصات محددة تناسبها ، وقد احتفظ لنا الأثر ببعض الصيغ التى كان الحجاج الوثنيون يبتهلون بها أثناء الحج مثل قول " لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك " ولاريب أن هذا اعتقاد عجيب حيث جعلوا الآلهة ، أو هؤلاء الوسطاء ، والشفعاء مملوكة لله ، وشريكة له فى نفس الوقت .

ورغم الاختلاف بين الشخصيات المؤلهة هنا وهناك ، إلا أنهم كانوا يجدون نوعا من التشابه بينها ، وذلك بغرض استخلاص بعض الحجج لصالح الوثنية ، إلا أن القرآن الكريم استند على المسيحية

---

١ - سورة يوسف آية (١٠٦)

٢ - سورة النجم آية (٤٩)

لهدم الوثنية .

ونعود من جديد فنقول أن فكرة التوحيد والاقرار بوجود إله قديم خالق وجدت فى الأديان السماوية كما وجدت عند القرشيين الأمر الذى يجعلنا نؤكد على أن الوحدة الدينية التي يدعو اليها القرآن الكريم تنبني على فكرة كانت موجودة من قبل ، وقائمة بالفعل ولكنها كانت مغمورة تحت أنقاض مجموعة من الأفكار المتناقضة ، فيستخرجها القرآن الكريم من بين هذا كله ، ويعيد إليها صفاءها ، وينقيها من كل شائبة ، وهو بهذا لا يخترعها ، ولا يكتشفها ، ولكنه أزال الشوائب العالقة بها ، وصهرها فى بوتقة الصفاء والنقاء ، ليعود لها طابعها الأصلي ، فطريقة القرآن اذأ قائمة على حذف الشوائب ، لا على اضافة الجديد .

وهكذا نرى أن قوة الفكرة الدينية لا تكمن فى أصالتها فقط وانما فى طابعها المتأصل ، إنها تدفعنا إلى الإيمان بها ، بنفس القوة التي تغوص بها جذورها فى أعماق معتقدات آبائنا الأولين ، الموغلة فى القدم ، ولهذا نرى القرآن الكريم - فضلا عن التدليل المنطقي السابق ، يؤسس دعوته إلى التوحيد : على تاريخ الأنبياء فى كل الأزمنة السابقة ..

" قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلها واحدا " (١)

---

١ - سورة البقرة آية (١٣٣)

" أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ،
هذا ذكر من معي ، وذكر من قبلي ، بل أكثرهم
لا يعلمون الحق فهم معرضون وما أرسلنا من قبلك
من رسول نوحي اليه ، أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . " (١)

وبهذا يتجلى بوضوح أن العقل والنقل يشاركان القرآن الكريم في إثبات عقيدة التوحيد ، ورفض الوثنية والإشراك على اختلاف صورهما . (٢)

وكما أوضح الدكتور دراز الأسلوب القرآني في إثبات عقيدة التوحيد وبيان كونها فطرية ، ومتأصلة في نفوس آبائنا الأولين ، وأن ماعداها من معتقدات ما هي إلا شوائب علقت بها ، في بعض الأزمان ، فجاء الإسلام ليعيد لها صفاءها ونقاءها الأول .

كذلك نجد الأستاذ / العقاد يعرض لأسلوب القرآن الكريم في اثبات عقيدة التوحيد ، مركزا على خصيصة القرآن الاستدلالية فيقول .. (٣)

((لم تتكرر البراهين على إثبات وجود الله في كتاب من كتب الأديان المنزلة كما تكررت في القرآن الكريم .. فليس في التوراة ولا في الانجيل أكثر من اشارات عارضة إلى الملحدين الذين ينكرون

---

١ - سورة الأنبياء آية ٢٤ ، ٢٥
٢ - أنظر في كل ما سبق " كتاب مدخل الى القرآن الكريم" ٧٣-٧٧ بتصرف
٣ - أنظر موسوعة العقاد الاسلامية ٢٥٢ - ٢٥٦

وجود الله .

القرآن جاء ليخاطب أقواما ينكرون ، وأقواما يشركون ، وأقواما يدينون بالتوراة والانجيل ويختلفون في مذاهب الربوبية والعبادة ، وكانت دعوته كافة للناس من أبناء العصر الذي نزل فيه ، وأبناء سائر العصور ، من أمة العرب وسائر الأمم ، فلزم فيه تمحيص القول في الربوبية من كل خطاب ، وقامت دعوته كلها على تحكيم العقل في التفرقة بين عبادة وعبادة ، وبين الإله الأحد وبين تلك الآلهة التي كانت تعبد يومئذ بغير برهان .. كان فيمن خاطبهم القرآن أناس ينكرون وجود الله وقال ..

" ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون "(١)

وكان فيهم من يدينون للأوثان ، ولا يقبلون عبادة غير العبادة الوثنية كما توارثوها عن الأجداد والآباء .. وكان فيهم من يشوبون الوحدانية بالوثنية ، ومن يختصمون على تأويل الكتب المنزلة ، كما اختصمت طوائف اليهود ، وطوائف المسيحيين .

وكان القرآن يخاطب العقل ليقنع المخالفين بالحجة ، التي تقبلها العقول الإنسانية ، فجاء بكل برهان من البراهين بما يلائم المقام ، من حيث المخاطبين ، وجعل الهدى من الله ، ولكنه من طريق العقل ، والإلهام بالصواب ..

---

١ - سورة الجاثية آية (٢٤)

" قـــل للـــه المشـــرق والمغـــــرب يهدى من يشاء "(١)

" قـــــل ان الهــــــدى هـــــــدى اللـــــه "(٢)

وآيات الله مكشوفة لمن يريدها ، ويستقيم الى مغزاها ، ولكنهـا هى وحدها لا تقنع من لا يريد ولا يستقيم ..

" لو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ،

لقالوا انما سكرت أبصارنـــــا ، بل نحن قوم مسحورون "(٣)

فحتى العيان لا تكفى لاقناع من صرف عقله عن سبيل الاقناع ، لأنـه يتهم بصره وسمعه فيما رأى بعينيه وسمع بأذنيه ، وكل شئ فـــى الأرض والسماء كاف لمن جرد عقله من أسباب الانكار والاضرار .

" ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم والـوانكم ، ان فى ذلك لآيات للعالمــــــين "(٤)

" وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحـــد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، ان فـــى ذلك لآيـــــات لقـــــوم يعقلـــــون "(٥)

---

١ - ســـورة البقـــرة آيــة (١٤٢)

٢ - ســـورة آل عمـــران آيــة (٧٣)

٣ - ســـورة الحجـــر آيــة (١٤)

٤ - ســـورة الـــروم آيــة (٢٢)

٥ - ســـورة الرعـــد آيــة (٤)

هذه أمثلة لما ورد في القرآن الكريم باقامة البرهان على وجـــود الله ، وهى براهين الخلق والابداع ، والقصد والنظام ، والكمـــال والاستعلاء والمثل الأعلـــــى))(١)

وأيا كان فاننا نرى من خلال ذلك أن الدكتور دراز كان أدق في منهجه في الاستدلال ، حيث نوه إلى دعوة الأنبياء السابقين ، لتوحيد العبادة لله ، وأن كثيرا من العرب كانوا يعترفون بوجود إله أعلـى ، وأنهم اتخذوا له وسائط عبدوها ، لتقربهم اليه ، فكانت حجـــــة القرآن أقوى في مجال جدالهم ، وإقناعهم ، واثبات الوحدانية للـــه رب العالمين ، فمعنى هذا أنها تقوم على حقائق سبق الاعتراف بها ، ثم اتبعت طريقا آخر لهؤلاء الذين لم يكونوا يعترفون بأديان سابقـــة ، فسلكت في إقناعهم طريق الحجة الواضحة ، والبرهان الفطري ، المبني علـــى النظـــر فـــي الوجـــود .

---

١ - موسوعة العقاد الاسلاميـــة ٢٥٦

المبحـــث الثالـث :

دعوة الاسلام الى الطاعات العملية

" التشريــع "

::

اعتقـــــاد وطاعـــــــة :

يستطرد الدكتور دراز لبيان الجانب السلوكى ، والمظهر العملـــي من الدين ، موضحا أسلوب القرآن الكريم فى معالجة هذا الجانـــب فيقـــول ..

((ولكن النفس الإنسانية لا تتغذى بالحقائق النظرية وحدهـــا فبجانب حاجة الإنسان إلى المعرفة والاعتقاد ، يحتاج فى إلحـــاح إلى القاعدة العملية القادرة على توجيه نشاطه فى كل لحظة مـــن لـحظات حياته ، سواء فى تصرفاته مع نفســه ، أو فى علاقاتـــه مع غيره ، أو مع خالقه ، ولقد قدم القرآن الكريم إلى هذه الحاجـة النظام الوافي ، بأوسع وأدق طريقة ممكنة ، وخط كل فرع من فـــروع النشاط الإنساني خطا واضحا ، يسلكه الانسان فى أمان واطمئنان .

فلا يكفي ليكون الإنسان مؤمنا حقيقيا أن يؤمن إيمانا عميقـــا بالحقائق المنزلة ، وانما يجب أيضا أن يكرس حياته وأمواله فـــي خدمة هذه العقيـدة ..

" انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لـــم

يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله
أولئك هم الصادقون " (١)

فعليه الاضطلاع بواجبه كمؤمن ، وأيضا كمواطن ، أى عبادة الله وفعل الخير ..

" يأيها الذين آمنوا ، اركعوا ، واسجدوا ، واعبدوا
ربكم ، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون "(٢)

فالدين عقيدة ونظام ، أى إعتقاد وطاعة ..

" آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن
بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من
رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير "(٣)

وتعريف القرآن للبر بمعناه الحقيقي ، إنما هو الإيمان بالحقائق السامية ، والتحلي بالفضائل الخلقية ، سواء فى السلوك الشخصي ، أو في المعاملة مع الغير ..

" ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن
البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب
والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى
والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام

---

١ - سورة الحجرات آية (١٥)

٢ - سورة الحج آية (٧٧)

٣ - سورة البقرة آية(٢٨٥)

الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا"(١)

لقد بلغت أهمية الجانب العملي في القرآن ، أنه يتكرر ذكره كثيرا بصراحة ، وكشرط لا غنى عنه للفلاح والسعادة الخالدة في الآخرة ، وعندما لا ينص القرآن على ذلك في عبارة صريحة ، في موضع ما ، فان كلمة " مؤمن " تتضمنه وتلح إليه بما يتفق مع مفهوم الإيمان ، أليس في هذا الاصرار المزدوج نوع من التدرج السُّلَّمي بين هذين العنصرين ؟ .. فمن المتفق عليه أن الإيمان شرط لازم للنجاة يوم القيامة)) (٢)

وبهذا أوضح الدكتور دراز أهمية الجانب العلمي ، في الإسلام وأن الدين إهتم بابراز الجانب العبادي تماما بمقدار إهتمامه بالجانب العقدي ، لا يقوم أحدهما دون الآخر ، بالنسبة للعقيدة الاسلامية ، فهما كجناحي الطائر ، لا يحلق إلا بهما معا ، فان عطل أحدهما ، أو أصيب توقف التحليق ..

---

١ - سورة البقرة آية (١٧٧)
هذه الآية الكريمة هي الشاهد هنا فيما يبدو ، على ضوء مفهوم الكلام ، غير أن المترجم أشار الى آية أخرى بدلا منها ، وهي رقم (٢٧٧) من سورة البقرة .

٢ - أنظر في كل ما سبق كتاب "مدخل الى القرآن الكريم" ٨٧-٨٨

ولقد وفق الدكتور أيما توفيق فى ابراز مدى اهتمام القرآن بالجانب العملي ، وبالنص صراحة عليه ، وضمنا فيما يقتضيه مفهوم الإيمان لدى كل مؤمن .

ويقول الأستاذ / عبد الكريم الخطيب [١] ..

والإسلام عقيدة وشريعة - ويندرج تحت العقيدة خمسة أصول ..

١ - الإيمان بالله .

٢ - الإيمان بملائكته .

٣ - الإيمان برسله .

٤ - الإيمان بكتبه .

٥ - الإيمان باليوم الآخر

وما يصل به من بعث

وحساب ، وجنة ، ونار .

ويندرج تحت الشريعة ثلاثة أصول ..

١ - العبادات

ولقد طرق موضوع العبادات كل من تعرض للاسلام باعتبارها أساس الدين ومنطلقه والركيزة التي يقوم عليها وبها الإيمان . [٢]

---

١ - أنظر كتاب " الاسلام فى مواجهة الماديين والملحدين ، مطبوعات دار الشروق بالقاهرة ٢١ ، ٢٢

٢ - د /محمد عبد الله دراز وآخرين " الاسلام الصراط المستقيم " منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت ١٩٦٣م ١٢٣ وما بعدها .

يقول النبى عليه الصلاة والسلام ..

" بني الإسلام على خمس : شهادة ألا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، والصوم وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا . "(١)

ويكفى فى مجال شهادة ألا اله الا الله أن نذكر أن الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعا دون أن يشرك به ، وأن شهادة أن .. محمدا رسول الله هى التالية على شهادة ألا اله الا الله ، وأن .. اقام الصلاة قد ورد مباشرة بعد الشهادتين اذ من أقام الصلاة فقد أقام الدين وأن الزكاة تطهر المال ..

" خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها" (٢)

وأن الصوم فضلا عما فيه من فوائد بدنية وصحية فهو " أولا وقبل كل شئ نوع من التدريب المفروض على الإرادة الإنسانية حتى نحصل منها على قدر من الانتظام والثبات فى خضوعها للارادة الإلهية "(٣)

وأن الحج فرض على من استطاع اليه سبيلا دون غيره .

٢ - المعاملات

كذلك الأمر بالنسبة لموضوع المعاملات فى الاسلام اذ عالج

---

١ - حديث صحيح " صحيح البخارى " باب الايمان

٢ - سورة التوبة آية (١٠٣)

٣ - دستور الأخلاق فى القرآن " مصدر سابق " ٦٣٧

القرآن الأمراض المزمنة التي عاني منها المجتمع البشري فلم يأخذها بالعنف والمفاجأة بل تلطف في السير بها إلى الصلاح على مراحل متريثة متصاعدة حتى وصل إلى الغاية . (١)

٣ - الأخلاق

وسوف نتحدث عن الأخلاق بصفة مستقلة .

---

١ - د / محمد عبد الله دراز " الربا في نظر القانون الاسلامي " اصدار بنك فيصل الاسلامي المصري ٢

الفصل الرابع

الجانب الأخلاقى فى الاسلام

الجانب النظرى

الجانب العملى

أو التطبيقى

. . . .

تمهيـــــد :

الأخلاق هى الأصل الثالث بعد العقيدة والشريعة واذا كـــان الدكتور دراز قد قام ببيان اصالة النزعة الدينية وقدمها ، وأنهـــا عرفت بالتوحيد الخالص منذ أن كانت ، وبعد أن رد على دعـــاة الدين التطوري وأثبت فساد مذاهبهم طبقا لمناهجهم ، وبعـــد أن دعاهم إلى منهج لا غنى عنه وهو حديث الكتب المقدسة عـــن الأديـــان .

بعد هذا كله أثبت رسالة النبى صلى الله عليه وسلم وبـــين أن الاسلام هو الدين الحق ، وأنه يقوم على أصول منها العقيـــدة والشريعـــة .. بعد هذا كله بدأ يتحدث عن الأصـــل الثالـــث وهو الأخـــلاق .

ونظرا لأن الرجل يوازن ويحلل ثم يحكم ويؤيد وجهة النظـــر الإسلامية فانه يتبع نفس الخط فى تناوله للمسألة الأخلاقية وفى كـــل سطر من سطوره يبدو مسلما وداعية أوسع من أن يدعو أبناء جلدتـــه من عرب ومسلمين ، لأنه يدعو البشرية كلها وجهابذة الفكـــر بصفـــة خاصـــة .

المبحث الأول :

الجانب النظرى من الأخلاق

::::::::::::::::::::::::::::::::::::

لقد استعرض الدكتور دراز ، كداعية مسلم يعمل لإقناع غير المسلمين بصحة ما جاء به القرآن الكريم ، وعمومه وشموله ، وذلك بعمل مقارنة للنظريات والآراء الأخلاقية التي قال بها الغربيون ، وتبعهم فى ذلك العديد من أنصارهم ، وبين ما جاء به القرآن الكريم من مبادئ أخلاقية ، موضحا أنها فى القرآن الكريم أدق وأوضح ، وأكثر أصالة مما قاله هؤلاء ، ومبينا أن هذه الحقائق والمبادئ برزت الى الوجود فى ضوء القرآن اللامع ، منذ أربعة عشر قرنا ، لكننا نجد أن مجتهدى المفكرين ممن يبحثون عن هذه الحقائق خارج ضوء القرآن ، يصدرون أقوالهم عن تردد وارتياب ، ولا يصلون إلى جزء منها إلا بعد جهد جهيد دون أن يتوقّوا الوقوع فى أخطاء فادحة .

ثم إن القرآن الكريم لا يكتفي فى الواقع بأن يضع قاعدة السلوك الأخلاقي على وجه أكثر شمولا وتفصيلا ، لكنه يرسي تحت هذه القاعدة بناء ضخما من المعرفة النظرية ، أعظم متانة وأشد صلابة ، وسوف نتناول بعض القواعد النظرية التي دأب الأخلاقيون على الحديث عنها ونبدأ بقاعدة الإلزام لأنه مدار تلك القواعد ، فما هو الإلزام ؟ وما مصدره ؟

١ - الالـــــزام :

بعد أن نقد الدكتور دراز نظرية " هنرى برجسون " فى قولـــه ان أساس الإلزام الأخلاقي يعود إلى قوة الضغط الاجتماعي ، وقـــوة الجذب الإنسانية ، المستمدة من العون الالهي ، وكذلك نظريـــة " كانت " فى ذهابه إلى أن مصدر الالزام هو تلك الملكة العليـــا فى النفس الانسانية ، والتي توجد مستقلة عن الشهوة وعن العالـــم الخارجـــي ..

عاد ليبرهن على أن ما ذهب اليه القرآن الكريم يعتـــــبر أدق ، وأشمل ، وأوفى من كل ذلك . موضحا أن القـــرآن الكريـــم علّمنا أن النفس الانسانية ، تلقت فى تكوينها الأولي الاحساس بالخير والشـــــر ..

" ونفـــس ومـــا سواهـــا ، فألهمها فجورهـــا وتقواهـــا " (١)

وكما وهب الانسان ملكة اللغة ، والحواس الظاهـــرة ، فإنـــه زود أيضا ببصيرة أخلاقيـــــة ..

" بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقـــى معاذيـــره " (٢)

ولقد هـــدى الانسان إلى طريقـــي الفضيلة والرذيلـــة ..

" ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين ، وهديناه النجدين " (٣)

---

١ - سورة الشمـــس آيـــة (٧ ، ٨)
٢ - سورة القيامـــة آيـــة (١٤)
٣ - سورة البلـــد آيـــة (٨ - ١٠)

حقـــــــا ..

" ان النفـــــس لأمـــــــارة بالســـوء " (١)

ولكن الانسان قادر على أن يحكم أهواءه ..

" وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهــوى

فان الجنـــــة هـــــى المـــــأوى " (٢)

واذا لم يكن فى مقدور كل الناس ممارسة هذا التأثير على أنفسهـــم فان منهم من يفعله بتوفيق الله له ، وهو ما قرره رسول الله صلـــى الله عليه وسلـــم ، فـــى قولـــه ..

" اذا أراد الله بعبد خيرا ، جعـــل لـــه واعظا

مـــن نفسـهـــه ، يأمـــره وينهـــاه "(٣)

ففى الإنسان اذن قوة باطنة ، لا تقتصر على نصحه وهدايتـــه فحسب ، بل إنها توجه إليه أوامر بأن يفعل ، أو لا يفعـــل .. وهذه السلطة المسيطرة على قدراتنا الدنيا هى الجانب المضـــئ من النفس الإنسانية ، وهو العقل .. فليس وراء العقل وقيادتـــه قاعدة للسلوك الإنسانى .. وهـــذا هـــو الالـــزام .

والقرآن الكريم عبر عن ذلك بأسلوبه الخاص ، حين صور حـــال

١- سورة يوســـف آيـــة (٥٣)

٢- سورة النازعـــات آيـــة (٤٠)

٣- ذكـــره السيوطى فى الجامع الصغير

الكافرين بين أمرين ، فقال تعالى ..

" أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون " (١)

ونحن عندما نقصر في واجبنا نحس أننا قد هبطنا إلى مستوى غير خليق بنا ، ونعترف ضمنا بأننا مخلوق نبيل قد زل ، ولا يزال القرآن يوقظ فينا هذا الشعور بكرامتنا الأصيلة ..

" ولقد كرمنا بنى آدم ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " (٢)

ليس هذا فحسب ، لكننا ، اذا ما نحينا جانبا تلك الإشارات الخارجية إلى الكرامة الانسانية ، واذا ما وقفنا أمام القيمة الأخلاقية، فانه يبدو لنا أن القرآن الكريم لا ينظر إلى الطبيعة الإنسانية على أنها شريرة فى أصلها ، ولا على أنها فاسدة فسادا عضالا ، بل على العكس من ذلك ..

" لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم " (٣)

ولم يهلك من الناس بعد هذا سوى الذين جحدوا ، والذين لا يؤدون شعائر دينهم ..

" ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنو وعملوا الصالحات" (٤)

---

١ - سورة الطور آية (٣٢)

٢ - سورة الاسراء آية (٧٠)

٣ - سورة التين آية (٤)

٤ - سورة التين آية (٥ ، ٦)

فالأمر اذن أمر اختيار دنيوي ، لا علوي ، وهو يرجع إلى مدى .... استخدامنا الحسن أو السيئ لملكاتنا العليا ، وهى ملكات يزكيهـا تنقية النفس ، ويطمسها اهمالهـا ..

" قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها " (١)

والقرآن الكريم لم يقتصر على الملكات العقلية وحدها ، وإنما عني في الوقت نفسه عناية كبيرة بايقاظ أشرف المشاعر فينا وزكاهـا ، بيد أنه لم يحرك أو يوقظ هذه المشاعر إلا تحت رقابة العقـول ، فهو يتوجه إلى ذلك الجانب المضئ من أنفسنا ، يحثها علـى النظر ، والفهم ، وأن تقدر كل شئ ما يضر وينفع .

والعقل لا يستطيع أن يستقل وحده بالهداية إلى السلوك الخير، والإلتزام به ، أو بالأحرى إلى فكرة الخير والشر ، وإلا لكان لـه القدرة على التشريع ، ولما كانت هناك حاجة إلى الرسل ، وإلـى وحي يوحى إليهم بتشريع إلهى ، وهو أمر فوق طاقة العقول ، لأنها في الحقيقة بحاجة إلى نور تهتدى به لإدراك ما هو فوق طاقتهـا ، وما به تستطيع أن تنفذ إلى مغاليق الأمور ، وهذا النور المطلـق الذى تلجأ اليه ، هو خالقها ، وباعث وجودها ..

" ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير " (٢)

---

١ - سورة الشمس آية (٩ ، ١٠)

٢ - سورة الملك آية (١٤)

فمن ذلكم النور المطلق اللانهائى تستمد العقول والنفوس المضيئة ، نورها واشراقها ، وإلى ذلك الخلاق المبدع تتوجه طالبة الهداية فى مجال الكون ..

" عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون " (١)

وفى القرآن الكريم يسير العقل والنقل معا ، جنبا إلى جنب، كدليل ، أو حجة ، وهو ما يفهم من قوله تعالى ..

" وقالوا لو كنا نسمع ، أو نعقل ، ما كنا فى أصحاب السعير " (٢)

ففى حين لا يجد الملحد لديه إلا نور واحد هو نور العقل ، وقد استغلقه على نفسه ، نجد لدى المؤمن نورين نور العقل ونور إلهى يستضئ به ..

" نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء " (٣)

وليس معنى هذا أن هناك مصدران مختلفان للإلزام الأخلاقي الأقرب أقلهما نقاء ، وهو فى متناولنا ، أما المكمل فليس قريب

---

١ - سورة البقرة آية (٢١٦)

٢ - سورة الملك آية (١٠)

٣ - سورة النور آية (٣٤)

المنال ، ولا سلطان له علينا ، وهو موجه فقط ، أما الأول فيختار ، وينفذ ما يختاره وعليه تقع تبعة ما يختار ..

" لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت "(١)

ويزول هذا اللبس إذا علمنا أن النورين ، الفطري ، والموحى به ، ينبثقان من مصدر واحد فحسب ، فيجب أن نخرج من ذلك بأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يرشدنا دائما إلى واجبنا ، ما ظهر منه وما بطن . وهكذا نصل إلى مصدر الالزام الأخلاقي فى الاسلام ويبدو أستاذنا مسلما وداعية يركن إلى الأصل الديني الأصيل .

يلاحظ أن الدكتور دراز ، قد عالج فى نفس الوقت نقطة هامة تثار دائما فى الإسلام ، وفى غيره من الأديان السماوية ، بل وتعرض لها العديد من المفكرين وأصحاب النظريات ، فى الشرق والغرب .. هذه النقطة ، هى موضوع الجبر والاختيار ، أو القضاء والقدر ، وهو قد عالجها بأسلوب غير مباشر .. وبطريقة ضمنية وذلك حين فرق بين النور الفطري ، أي العقلي ، والنور الإلهي أي الوحي المنزل على الرسل ، وتأثير كل منهما فيما اكتسبه ، أو يكتسبه الإنسان ..

ولا ريب أنه لا يفعل ذلك إلا داعية متمكن ، حاد الذكاء ، واسع الإطلاع على ما فى الكتاب والسنة ، بحيث يعرض للقضايا

---

١ - سورة البقرة آية (٢٨٦)

والمسائل التي تخدم الاسلام ، وتقنع الخصم ، فى قضايا أخرى لم تكن موضع نقاش ، أو محاورة .

والله سبحانه وتعالى نور السموات والأرض ، وهو مصدر الإلزام والشريعة الاسلامية توجيهاته سبحانه وتعالى ، فى هذا الشأن ، وأصول التشريع الاسلامى ، أو بالأحرى الشريعة الاسلامية أربعة :

القرآن الكريم

والسنة

والاجماع

والقياس

وقد استعرض الدكتور دراز آراء فقهاء المسلمين فى حجية هذه المصادر الأربعة ، واتفاق جمهور المسلمين عليها ، واختلافهم في حجية القياس كمصدر خامس من مصادر الشريعة الاسلامية ، وكان أحرى به أن يذكر أيضا ، الاستحسان ، والمصالح المرسلة ، حيث اعتبرها بعض علماء المسلمين . (١)

ثم أوضح بأن هذا الإلزام يتعلق أساسا بالأمور الممكنة ، الميسر العمل بها ، التي تخضع لارادة الانسان ، تلك الإرادة التي يوجهها ضمير حي مستنير ، بفضل التعاليم والمبادئ التي حددتها الشريعة . (٢)

---

١ - شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ج ١١ مجموع فتاوى ٣٤٢ - ٣٤٣ الناشر مكتبة دار المعارف - المغرب .

٢ - أنظر فيما سبق د / محمد عبد الله دراز كتاب دستور الأخلاق فى القرآن ١٩ - ١١٨ نشر دار البحوث العلمية بالكويت الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م

٢ - المسؤولية :

بدأ الدكتور دراز يتحدث عن المسؤولية ، والعلاقة بينها وبين الإلزام ، وعن مفهومها العام ، ومفهومها الإنساني ، وأنها بهذا المعنى استعداد فطري للوفاء بما ألزم الانسان به نفسه ، في حدود الامكان ، وعلى ضوء العقل الذي ميزه الله به ، ووفور الظروف والمعايشة الإجتماعية ، فلكل منا بالضرورة بعض العلاقات وهو يشغل مكانا معينا ، ويمارس بعض الوظائف في جهاز المجتمع، فالأب مسؤول عن رفاهية أولاده - المادية والأخلاقية - والمربون مسؤولون عن الثقافية الأخلاقية والعقلية للشباب ، والعامل عن تنفيذ عمله وكماله ، والقاضي على توزيع العدالة ، والشرطي عن الأمن العام ، والجندي عن حفظ الوطن ، كذلك نحن - فرادى - .... مسؤولون عن طهارة قلوبنا ، واستقامة أفكارنا ، كما أننا مسؤولون عن حماية صحتنا ، وحياتنا ، حتى أننا نستطيع أن نجد في كل لحظة من لحظات الحياة الإنسانية بعض المسؤوليات ، وهي ليست افتراضية فحسب ، بل حاضرة وواقعية ، متى تحققت لها الشروط العامة ، ثم إن اختلاف المواقف لا يتدخل إلا من أجل تخصيص وتحديد موضوع هذه المسؤولية .. وكذلك فالإنسان مسؤول طبيعيا حتى قبل أن يكون مسؤولا أخلاقيا حسب المواقف التي أوردنا ذكرها سابقا ، فالمسؤولية لصيقة بالإنسان ، وليس معنى هذا أنه على وفاق دائم معها ، بل كثيرا ما يخل بها ، تبعا لتأثير

عوامل مضادة ، وتتوقف على نوعية العمل الذي نؤديه بالفعل ، لا على مجرد النية على فعله ، فهى تحسب على ضوء نتيجة العمل .

وكون المرء مسؤولا يدعوه ذلك إلى أن يقدم حسابا عن عملـــه ، ونوعية الحساب متوقفة على الطريقة التي تم بها آداء العمل الالزامي ، أو إهماله ، وبمعنى آخر فان القاضي الذي سوف يمثل المرء أمامـه ليس سوى السلطة التي يصدر عنها التكليف ، والسلطة هذه ، إمـا نابعة من نفسه ، أو من آخرين ، أو من ذات أعلى شأنا ومقامـا ، وعلى ضوء ذلك فهناك ثلاثة أنواع من المسؤوليـة :

المسئوليـــة الدينيـــة

والمسئوليـــة الإجتماعيـــة

والمسئوليـــة الأخلاقيـــة

المحضـــة

ولقد أشار القرآن الكريم الى هذه الثلاثة مجتمعة فى قوله تعالى..

" يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ، وتخونوا أماناتكـم ، وأنتـم تعلمـــون " (١)

وأن أي نوع من المسؤولية ، متى ارتضيناه ، يعتبر مسؤلية أخلاقية فالتي حملنا ايها غيرنا تصبح بمجرد قبولنا لها مطلبا صادرا عـــن شخصنا ، ولذا فاننا نرى القرآن الكـريم ، فى بعض المواقـــف ،

---

١ - ســورة الأنفـــال آيــة (٢٧)

يقدم لنا المسؤولية الدينية ذاتها في صورة مسؤولية أخلاقية محضة ، حين يقول في بعض التعاليم المتعلقة بالصوم المفروض - وقد تحايل بعض الناس على التخلص منه سرا -

" علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم " (١)

وفي كثير من الأحيان لا يكتفي القرآن الكريم ، حين يحث المؤمنين .. على الطاعة ، بأن يذكرهم بالأمر الالهي ، بل يذكرهم ،في الوقت نفسه ، بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم ، بأن يطيعوا هذا الأمر

" .. وقد أخذ ميثاقكم " (٢)

ثم إن المسؤولية المترتبة على المبادرة الفردية ، يحلها الإسلام مكانا فسيحا ، ويدمجها في مجالات كثيرة بالمسئولية التي أقرتها قواعد الشرع المنزل ، كالمحسن الذي يتطوع بمحض اختياره ، لا يستطيع أن يسحب تطوعه ، والشخص الثالث الذي يضمن دينا على سبيل المروءة يصبح مدينا بدوره ، والتقى المتطوع بأداء نافلة أصبح أمام تكليف ملزم ، بمعنى آخر فان المرء اذا ألزم نفسه بكلمة أو عمل مشروع ، أصبح مسئولا مسئولية صارمة على أداء ما ألزم نفسه به ..

" وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا "(٣)

فهذه مسئولية ترتبت على نزوع ارادي اختياري ، فصارت نتيجتها

---

١ - سورة البقرة آية (١٨٧)

٢ - سورة الحديد آية (٨)

٣ - سورة الاسراء آية (٣٤)

ملزمة الزاما أخلاقيا ، من حيث الآداء ، أو عدمه .

وكذا مسئوليتنا التي نتحملها تجاه الآخرين ، مستقلة عن ارادتنا لها قوة الإلزام الصارم ، فلا أحد ينازع حق الوالدين في ضرورة احترام أولادهم وخضوعهم لهم ..

" وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما
أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل
لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة " (١)

بيد أن هذا الحق - على ما جاء في القرآن الكريم - لا يخوله لهما سوى سلطة محدودة ، ومشروطة ، ويتوقف مفعولها عندما يطلبان منا أن نخون الأمانة ، أو نرتكب ظلما أيا كان نوعه ..

" وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم ، فلاتطعهما " (٢)

بل إن الوضع ينقلب عندما يرتكبان ظلما ، وحينئذ يجب على الأولاد دعوتهما إلى الواجب ، وبوسعهم أيضا أن يوقفوهما أمام القضاء .. ألا ما أعظم ما يشعر به المسلم نحو أبويه من احترام ، وما أعمق ما يكنه لهما من حب ، لا سيما اذا كانوا على دين واحد ، لكن ينبغي أن يكون حبه للحق ، والعدل مرجح على العاطفة الأبوية ، اذا تعارضا ..

" يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء

---

١ - سورة الاسراء آية (٢٣ ، ٢٤)

٢ - سورة العنكبوت آية (٨)

لله ، ولو على أنفسكم ، أو الوالدين والأقربين " (١)
وكذلك طاعة أولى الأمر فهى مشروطة بأن تكون موافقة للشرع فان كانت مخالفة للشرع فلا تستحق إلا الرفض . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه ابن مسعود رضى الله عنه ..

" السمع والطاعة على المرء المسلم ، فيما أحب وكره ، مالم يؤمر بمعصية ، فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة "(٢)

وقوله عليه السلام ..

" لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق "(٣)

ولقد أسس القرآن الكريم وجهة النظر الأخلاقية ، وراح يقرر فى هذا الصدد الشروط التي تتفق تماما مع المقتضيات المشروعة لأعظم الضمائر استنارة ، واهتماما بالعدالة ، دون أن ينتظر النضج البطيء ، المتردد ، عبر القديمة والحديثة ، لكي ينتهي إلى هذا الوضع الواضح القويم .

فالمسئولية ترتبط ارتباطا وظيفيا بالشخصية ، ولذلك لا يطبقها غير الإنسان البالغ العاقل ، الواعي بتكاليفها ، ويجب أن يتمثلها أمام ناظره فى لحظة الاقدام عليها ، والعمل بها ، فاذا تحددت

---

١ - سورة النساء آية (١٣٥)

٢ - رواه البخارى ، كتاب الأحكام ،باب ٣ .

٣ - مسند الامام أحمد ٥/٦٦ عن عمران بن حصين .

صفات الشخص تعيّن ، بعد ذلك ، أن يكون مسئولا عن الأفعال التي يأتيها بارادته الحرة ، واذن فالإرادة والحرية هما من الناحية العملية مترادفان ، وليس لأية قوة في الطبيعة ، باطنة أو ظاهرة ، سلطة كافية لكي تحرك أو توقف النشاط الداخلي لإرادتنا وقد تستطيع الطبيعة أن تحرمنا ، بسبب بعض الظروف المادية ، من تنفيذ قراراتنا ، وقد تستطيع أن تخلع عنا بعض الصفات الدمثة ، الرقيقة ، التي تجعل قراراتنا الخيرة أكثر يسرا ، ومودة ، ولكنها لا تستطيع أن تمس فينا القدرة على هذه الحمية الجريئة ، التي نقدر على إثباتها رغم كل شيئ ، مضحين بمسراتنا ، وكذلك عندما يخضع المرء لإكراه خارجي ، أو لضرورة حيوية ، فانه يفعل ذلك بحرية ، وهو يوازن بين الأدلة والبواعث المتناقضة ، ثم يختار ما يبدو له أكثر تناسبا ، وعلى أساس من هذا الاختيار يكون حسابه ، أحسن أم أساء .

فمن شروط المسئولية الأخلاقية والدينية ، أنها ذات طابع شخصي

" لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت "(١)

وأن أحدا لن يحاسب على أفعاله دون أن يكون على علم مسبقا بأحكامها . وبنتيجة تلك المسئولية ..

" وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا "(٢)

---

١ - سورة البقرة آية (٢٨٦)

٢ - سورة الاسراء آية (١٥)

وأن تصدر الأفعال عن ارادة وقصد ، موافقة أو مخالفة لما أرادها الشرع . وفى اطار العقل والحرية الكاملة ..

" فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لاثم فان الله غفور رحيم "(١)

وينتهى الدكتور دراز ، بعد أن بين حدود المسئولية وشروطها ، بيانا شافيا فى أسلوب الداعية المقنع ، الذى يستمد ما يقوله من كتاب الله الكريم ، لبيان حجية القرآن ، وقوة أسلوبه وبلاغته ، والحكمة المثلى فى تعاليمه ، يقول ..

((وأخيرا فان المبدأ القرآنى للمسئولية هو مبدأ فردي ، يستبعد كل مسئولية موروثة ، أو جماعية بالمعنى الحقيقي للكلمة .

هذه المبادئ التي تتبعناها على وجه الدقة ، والتي استخرجنا منها أدق النتائج فى الميدان الأخلاقي والديني ، قد وزد عليها - ولا ريب - استثناءات فى الميدان الفقهي ، ومع ذلك لم تغفل كثيرا فى مسائلها الجوهرية ، وسيبقى العمل الارادي للفرد الإنساني المزود بالعقل ، الموضوع الدائم والوحيد للمسئولية ، وتبقى أيضا نية فعل الشر شرطا ضروريا للعقاب))(٢).

ولا شك لمن لديه أدنى نظر أن يتنبه لما سار عليه الدكتور دراز فى توضيح أفكاره ، انه لم يخضع لمؤثرات أجنبية فى بيان المسئولية على الرغم مما كتب عنها ، ولم ينقل من هنا أو هناك ،

---

١ - سورة المائدة آية (٣)

٢ - دستور الأخلاق فى القرآن " مصدر سابق " ٢٤٢

ولكنه أقام أفكاره كلها على أساس إسلامي بحت ، سواء فيما رد به على المفكرين الغربيين أم فيما حاول به رسم خط الفكرة من بدايتها إلى ما انتهى اليه .

فهل الدعوة غير تحمس واع وثاقب لأصول الاسلام وتوجيهاته في كل مسألة منها على حدة ؟

وهل الداعية غير رجل استوعب الاسلام فراح يدحض به أفكار البشر ويقربه بأسلوبه إلى الأذهان ، ان الدكتور دراز شخصية إسلامية متميزة ..[1]

---

١ - أنظر فيما سبق " دستور الأخلاق فى القرآن " مصدر سابق ١٣٤ - ٢٢٢

٣ - الجـــــزاء :

هنا بدأ الدكتور كداعية اسلامى قدير ، يتحدث عـن موضـــوع الجزاء بصفة عامة ، ثم تناول بأسلوبه المقنـــع الجـــزاء الأخلاقـــى ، وضرورته ، ثم انتقل منه إلى الجزاء فى اطار الدين . كضرورة مـــن ضروريات الايمان .. بالثواب والعقاب .. وهو أسلوب فى مجال المحاورة والإقناع أوقـع وألـــزم ..

فقد بين أن الدعوة إلى العمل توجه بادئ ذى بدء لإرادتنـــا الحرة الطيبة ، وعند الإستجابة لتلك الدعوة نتحمل المسئولية ، ثـــم يترتب على تلك المسئولية الجزاء .. ان خيرا فخير ، وان شرا فشر.. فالجزاء من جنس العمل ، ونتيجة حتمية له ، ولا يتنافى فى هـــذا مع طبيعة المبدأ أو القانون الأخلاقي .. وما أثاره البعض من شبهـــة التعارض بمقولة أن المبدأ الأخلاقى منزه على الاطلاق من أى غرض - فكيف نضع له غاية ، كالجزاء (خيرا أو شرا) مـــع أن طبيعـــة المبدأ الأخلاقي تقتضي فعل الخير أو الواجب لذاته [1] دون انتظـــار لشيء فى النهايـــة .. كالجزاء مثـــلا ؟

---

١ - وعلى ذلك سارت الفلسفة الصينية والرواقية : أنظر الاستاذ الدكتور محمد غلاب الفلسفة الشرقية "الصين" وأحمد بن فضة الفلسفـــــة اليونانية وبرتراند رسل تاريخ الفلسفة الغربية ويوسف كرم تاريـــخ الفلسفة اليونانية .

وقد أجاب على ذلك قائلا : لا ريب أن هذه الشبهة تقوم على الخلط بين علم الأخلاق ، والنزعة الأخلاقية .. بين مقتضى العدالة في ذاتها ، والأهداف التي تنشدها الارادة .. وهما في الواقع أمران متمايزان تماما ، دون أن يتوازيا بالضرورة ، فهما ليسا نقيضين حتى يقال إنهما لا يجتمعان .. وما المانع في أن يكون لقانون معين جزاء صارم ، دون أن يدعونا ذلك في نفس الوقت لأن نتخذ من جزاءاته حافزا لجهدنا .

ان الجزاء أمر ضروري كغاية لتنفيذ المبدأ أو القانون الأخلاقي ، أو عدم تنفيذه ، وإلا لم يكن هذا المبدأ ملزما .. بل إنه يكون متعسفا اذا فقد الجزاء ..

لكن فيما يتمثل هذا الجزاء الأخلاقي ؟ .. هل في رضا الضمير ، وندمه ، اذا فعلنا خيرا أو شرا ، أم في رد فعل المبدأ أو القانون الأخلاقي ؟ .. لا ريب أنه أثر لرد فعل ضميرنا على ذاته .. وشدة اللوم الباطني التي يظهر أثرها على جوارحنا الظاهرة .. وهذا المعنى هو المقصود فيما رواه الامام أحمد في مسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ..

" اذا ساءتك سيئتك وسرتك حسنتك فأنت مؤمن "(١)

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم ..

" المؤمن يرى ذنبه فوقه كالجبل يخاف أن يقع

---

١ - مسند الامام أحمد من طريق أبي أمامة ٥/ ٢٥١-٢٥٢ ، ٢٥٦

عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره "(١)

لكن الندم لا ينشئ جزاء (ثوابا ، أو عقابا) وان كان يعد بمنزلة جزاء اصلاحي . وهو تمهيد للتوبة وإعداد لها .. فعندما تخضع النفس لفعل الشر ، يحدث فيها شئ من التصدع ، ثم ما تلبث أن ترى فى مرارة الندم المؤلمة ، وسيلتها لتلتئم ، وتستجمع قواها من جديد ، وتحمل أمانتها ، مع مزيد من الطاقة والحماس ..

ان الندم أثر طبيعى للصراع ، ولكنه ليس جزاء ، أما التوبة فهي على عكس ذلك تماما هي الجزاء الأخلاقي بالمعنى الحقيقي .. انها واجب جديد يفرضه الشرع علينا ، على إثر تقصير فى الواجب الأولي ..

" وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون "(٢)

وهى واجب ملح وعاجل لا يحتمل التأخير ..

والتوبة يقصد بها فى الأخلاق الاسلامية تقويم موقف الارادة .... الإنسانية ، من الأسف على ما تم اقترافه فى الماضي ، وإعادة البنيان الذي تهدم ، واتخاذ السلوك القويم فى الحاضر والمستقبل .

ثم ان الخطأ الذي أهمل ، اما أن يكون خطأ فى حق الله ، أو خطأ فى حق الغير من البشر ، وهنا نرى الداعية يدخل إلى الإطار الديني ، ويصل الحديث بما جاء فى الاسلام عن الذنوب

---

١ - الترمذى ،كتاب صفة القيامة ، باب ٤٩

٢ - سورة النور آية (٣١)

والمعاصي ، وارتكاب المحرمات التي حرمها الله ، والعقوبات المتعلقة والمترتبة على ارتكاب تلك المحرمات ، سواء أكانت في نطاق الحدود التي شرعها الاسلام ، أم في اطار التعزير ، وما يقتضي ذلك من حق ولي الأمر أو القاضي ، أن يتخذ الرادع لما يناسب استقامة شئون المسلمين .. ونرى الداعية حين يأتي على ذكر هذه الأمور ، يقول ..

فاذا كان الخطأ في واجب أهمل ، وما زال الأمر به قائما ، فان التوبة فيه تكون بتداركه ، أو باعادة هذا العمل الناقص ، وتأديته بطريقة مناسبة ، حسب المطلوب ، ان عاجلا أو آجلا ، والله سبحانه وتعالى يقول :

" واذكر ربك اذا نسيت " (١)

ويقول عز وجل :

" .. فعدة من أيام أخر " (٢)

لكن اذا كانت الحالة التي ارتكب في شأنها الخطأ ، شرا إيجابيا ، فالطلوب هو تأدية أفعال تزيل آثار ذلك الشر ، أو بالأحرى أفعال ذات طبيعة مناقضة ، والله سبحانه وتعالى يعلمنا أن

" الحسنات يذهبن السيئات" (٣)

---

١ - سورة الكهف آية (٢٤)
٢ - سورة البقرة آية (١٨٥)
٣ - سورة هود آية (١١٤)

وأن أولئك الذين ..

" خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ،
ان الله غفور رحيم * خذ من أموالهم صدقة
تطهرهم وتزكيهم بها .. " (١)

والشريعة قد ميزت هنا بين نوعين من الخطأ الواجب ازالته ، فهناك أخطاء تنتهك واجبا شخصيا ، ويطلق عليه ، حق الله ، وذلك كأن يعكف المرء على شهواته ، عصيانا لخالقه . وهناك أخطاء تضر بحق الغير ، ويطلق عليه : حق العباد .. ولكل منهما جزاء محدد في الشريعة ..

وفي الحقيقة فان حق الله يدخل ضمنا في كل ما نقترفه ، حتى فيما يطلق عليه حق العباد ، ولذا فان المطلوب في التوبة بصفة عامة ، أن نأسف على ما اقترفنا ، وندعو الله أن يغفر لنا ونعزم ألا نعود إليه ، ونستفرغ طاقتنا للإتيان بأعمال طيبة لتعويض ذلك العمل السيئ الذي اقترفناه ثم لا بد أن نحصل على ابراء صريح ومحدد من أولئك الذين أسأنا اليهم من البشر .. فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

" من كانت له مظلمة لأحد ، من عرضه أو شيئ ، فليتحلله
منه اليوم ، قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، وان كان
له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وان لم تكن له

---

١ - سورة التوبة آية (١٠٢ ، ١٠٣)

حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه " (١)

فابتداء من الكذاب حتى القاتل ، كل انسان مذنب فى حق الغير يجب أن يعترف ، ويستسلم لضحاياه ، ويخضع لأحكامهم ، فاذا لم يستبرئهم فى هذه الدنيا ، وجب أن ينتظر مقاصة ثقيلة يقتصونها منه فى الآخرة .

واذا كانت التوبة جزاء إصلاحيا ، وفق ما يتطلبه الشرع ، فان هناك أيضا جزاء ثوابي ، نتيجة للإلتزام بما كلفنا بتأديته ، من ممارسة الفضائل ، وهجر الرذائل ، والإقبال على فعل الخير، والإبتعاد عن الشر ، وبصفة عامة الالتزام بآداء ما أمر الله به، والإبتعاد عما نهى عنه . موضحا خلال ذلك كله أهمية تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتنفيذ العقوبات التي جاءت بها ، لمختلف الجرائم، والإنتهاكات ، كي يستقيم المجتمع الاسلامي ، ويسوده العدل، والأمن ، والطمأنينة ويرقى بأفراده من مهاوي الرذيلة إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم(٢)

---

١ - البخارى ،كتاب المظالم باب ١٠ وكتاب الرقاق ، باب القصاص

٢ - أنظر فيما سبق دستور الأخلاق فى القرآن " مصدر سابق" ٢٤٣ - ٢٩٣

٤ - النيّة والدوافـــع :

ان الشريعة الاسلامية اعتبرت النية فى كثير من الأعمال التي يقوم عليها المسلم ، وهي من هذا الاعتبار يمكن تقويم الفعل نفســه ، واعطاء الحكم عليه ، ثوابا أو عقــابا ..

والدكتور دراز كداعية اسلامي فى بحثه عن الأخلاقيات ، بصفـــة عامة ، لم يغفل الجوانب الاسلامية ، بل انه يعرض لتلك النزعـــات بما يتفق وروح الإسلام ، ومبادئه ، وتعاليمه .. وحتى فى عرضـــه للنظريات والآراء الحديثة يأخذ منها ما يوافق الإسلام ، ويعـــارض ما يخالفه ، وفى الجزئيات .. كما سبق أن أشرنا سرده لنشـــأة الدين ، وغيره .. وهو هنا يمهد لتحديد ماهية النية فيقول بمـــا معناه .

إن الأعمال التي تصدر عن الارادة مسبوقة بقصد أو نية ، للاقدام على ذلك العمل ، أو الاعراض عنه ..

ذلك أن المرء قبل اقدامه على أي عمل كان .. يتصور ما يعمله .. تصورا ذهنيا ، ثم يهم للاقدام على فعله ، أو تركه ، فاذا تحرك بالفعل لهذا العمل ، معناه أن ارادته الحرة قد هيمنت علـــى جوارحه لتحصيل هذا العمل ، وأدائه .. ومعنى هذا أنه تخـــرج الأفعال اللاشعورية التي يفعلها المرء دون ارادة منه ، كردة الفعل من وخز أبرة مثلا .. فالنية شرط للتصديق على الفعل ، وعليهـــا

يتوقف الحكم على هذا العمل ، حسنا أو قبحا ، أو ثوابا وعقابا ، وبالنظر لكون هذا العمل ، أُمِرَ به أو نُهِيَ عنه - والشرع الاسلامي يضرب صفحا عن العمل الذي تنقصه النية ، أو العمل اللاارادي .. فالأعمال لا تنسب الينا إلا بقدر النية التي نؤديها بها ..

إن القرآن الكريم يتطلب منا الشعور النفسي ، وحضور الذهن فيما نقول ، وفيما نفعل ، وألا نكون في حالة شرود ، أو اغماء ، أو سكر ، حين نؤدي واجباتنا الدينية ، قال تعالى :

" .. لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ، حتى تعلموا ما تقولون "(١)

بل إنه يطلب منا حين نؤدي الواجب ، أن يكون عن رضا القلب ، وتلقائية الفعل ، والسرور ، والهمة ، حتى تكون الأعمال مقبولة عند الله . وألا نكون كسالى أو مرغمين على آدائها ..

" ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون "(٢)

بل إنه عرفنا أن الدخول في الإسلام نفسه لا يكون بالاكراه ، وإنما بالاقتناع الخالص ، والإختيار الحر الصادق ..

" لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي "(٣)

فاذا قبل المرء الدخول فيه عن رضا وقناعة ، واختيار كامل ، كان عليه أن يلتزم بتنفيذ جميع أوامره ، وأن يخضع نفسه كلية لجميع

---

١ - سورة النساء آية (٤٣)

٢ - سورة التوبة آية (٥٤)

٣ - سورة البقرة آية (٢٥٦)

تعاليمه ، بحيث لا يكون هناك شئ يتردد فيـــه ..

" فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثـم

لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليمـــا "(١)

وان تنفيذ تلك التعاليم مرهون بالنية ..

ولعل مما يوضح قيمة النية بالنسبة للأعمال ، قول رسول اللـــه صلى الله عليه مسلم ، مما رواه البخارى فى صدر صحيحــه ..

" انما الأعمال بالنيـــات .. "

أي أن الأعمال لا قيمة لها الا بنواياها ، أو أنها لا توجـــد إلا بالنوايـــا .

ومع أن بعض الشعائر الدينية قد تغاضى جمهور فقهـــاء المسلمين بشأنها عن غيبة النية ، كالتطهر وسائر مقدمات الصـــلاة ، كاللباس ، والتوجه شطر الكعبة ، واختيار المكان الطاهر للصـــلاة ، فالنية فى كل ذلك ليست لصحتها ، بل لكمالها ، لأن هـــذه الأشياء ليست واجبة لذاتها ، وانما واجبة لغيرها ، ومع أن النيـــة ضرورية لكمال هذه الأمور ، فهى بالتالى موجودة وجودا ضروريا فـــى كل عمل من الأعمال ، سواء لصحته ، أولكماله ..

ثم ما هو الدور الإيجابي للنية ؟ أي درجة لفاعلية وجودها ، وما المراد بنية حسنة ، أو سيئـــة ؟ ..

إننا نفترض أن الارادة حبيسة فى أعمالها ، وفى كيفيات آداء هذه

---

١ - ســـورة النســـاء ، آية (٦٥)

الأعمال ، بصرف النظر عن جميع الدوافع التى قد تحملها عليهـــا ، ومن ثم فان حسن النية لا يمكن أن يتمثل هنا فى شرف الغايـــات التى قد تتحرك بها الارادة لأداء تلك الأعمال فحسب .. ذلـــك لأن قيمة النية تنبع هنا من الطريقة التى تحكم بها على أعمالنا ، من حيث اتفاقها أو اختلافها مع الشريعـة .

ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يقصد بقوله " انمـا الأعمـــال بالنيات(١) .. " أن الأعمال لا تقوم ، ولا توجد الا بالنيات فحسـب ، بل قال أيضا ـ فيما روته السيدة عائشة رضى الله عنهـا :ـ

" من عمل عمـــلا ليـــس عليـــه أمرنــــا فهــــو رد " (٢)

أليس هذا هو أفضل برهان على أن المسلك الحسن لا ينحصـر فـى حسن النية وحده ، ولا فى دقة العمل وحدها ، بـل فـى مجمـوع من الشكل ، والمادة ، بحيث لا يمكن أن يستغني أحدهما عـــن الآخـر ؟ وانا لنجد القولة الكاملة عن الواجب ممثلة فى الحديـــث المشهـور : " ان الله لا ينظر الى صوركم ، وأموالكم ، ولكن
ينظر الى قلوبكـــم وأعمالكـــم " (٣)

وفى قولـه صلى الله عليـه وسلـم ..

" لا يقبـل الله قولا الا بعمل ، ولا يقبل قولا ولا عملا الا بنية "(٤)

فالقول والعمل لا يصلحان الا بنية والنية لا تصلح الا بمواقف السنة ،

---

١ - صحيح مسلم للامام ابى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشـيرى النيسـابورى ج ٣ ٤٨

٢ - رواه مسلم كتاب الأقضيـة ، باب ٨

٣ - رواه مسلم كتاب اللبـاس ، باب ١٠

٤ - أنظر الحسبة لابن تيميـة ٩٢

أو بالأحرى الشريعة ، وهناك شرط ثالث يستتبعهما وهو توفقهما مع الإرادة ، والرضا بكل حرية .

واذاً فلكي يمكن أن يكون عمل ملتزم وموافق للشرع ، ينبغي أن يكون صادرا عن ارادة حرة ، ومعلوما من قبل ، ولذلك قسم النبي صلى الله عليه وسلم القضاة إلى ثلاث طوائف ، واحدة منها هي الناجية فقال :

" قاضيان في النار ، وقاضي في الجنة ، فالذي في الجنة: رجل عرف الحق فقضى به ، والذى في النار : رجل قضى للناس على جهل ، ورجل عرف الحق فقضى بخلافه "(١)

وقد ينتابنا القلق من أن النية تجرم وتتهم النفس الأمارة المتمردة ، ثم بأي حق يستطيع الانحراف اللاارادي من ابطال أعمالنا ، على حين أنه ليس بمقدورنا أن نتجنب الخطأ . تجنبا كاملا .. ومن ناحية أخرى نحن نريد الخير ، لكننا نقع بجهلنا في الشر ، وفي هذه الحالة لا تكفي نيتنا الحسنة من تبرئتنا ..

اننا لكي نبدد هذا القلق ينبغي أن نتذكر القانون العلوي للأخلاق القرآنية " لا يكلف الله نفسا الا وسعها(٢)" فان ما يجب علينا ليس هو عدم الوقوع في خطأ ، وليس هو أن نبلغ في جميع الظروف الصيغة الدقيقة للواجب في ذاته ، وإنما هو أن نبذل جهدا دائبا ، حتى نزداد معرفة بهذه التعاليم الشرعية ، ونهتدى بنورها ..

---

١ - رواه الترمذى ، كتاب الأحكام ، باب ١

٢ - سورة البقرة آية (٢٨٦)

فارتكاب خطأ بسيط ، مقرونا بحسن نية ، بعد استخدام جميع الوسائل التي فى مقدورنا كي نصل إلى الحق أهذا الخطأ لا ينتج عنه سوى العفو ، وهو أمر لا يفتأ القرآن الكريم يردده كثيرا ..

" ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به.." (١)

" ادخلوا الباب سجدا ، نغفر لكم خطيئاتكم " (٢)

بل ان هذا الخطأ اليسير ، المصاحب للنية الحسنة ، فى مجال الاجتهاد يثاب عليه ، وهذا فيه أكمل العزاء للنوايا الطيبة التي تخطئ ، وتجد من اللوم والتأنيب الخلقى ، ما يؤثر على الملكات الفكرية ، والبحث العقلي ، احجاما لهما عن تكرار الوقوع فى الخطأ ، وذلك فيما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

" اذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب له أجران ، واذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر " (٣)

ثم إن النية عمل باطني ، أي محلها القلب ، وهي تحتاج في ظهورها ، وانبثاقها على أرض الواقع ، إلى ارادة ، تخرجها من حيز الباطن إلى الظاهر ، وهذه الارادة هي التي تحول النية من مرحلة الأفكار النظرية ، إلى مجال الواقع الملموس ، ويمكن من خلالها الحكم على هذا العمل بأنه خير أو شر ، مع أن الارادة ..

---

١ - سورة الأحزاب ، آية (٥)

٢ - سورة الأعراف ، آية (١٦١)

٣ - رواه البخارى ، كتاب الاعتصام باب ٢١

نفسها فى حاجة إلى جهد يصل بها لمرحلة الابراز والظهور في الواقع ، وهذا الجهد هو القدرة ، وهي التي تتحمل عبء التنفيذ ..

فالعمل أيا كان نوعه ، يبدأ من النية ، مرورا بالارادة ، وانتهاء بالقدرة المنفذة ، وهى الجوارح بصفة عامة ، وهذا كله عمل تتلاقى فيه الملكة التي تبدع ، بالقوة تحقق ، أو القلب الذي يبصر الأمور ، باليد التي تعمل .

وعلى النية يتوقف الحكم على الأعمال ، والأعمال نفسها إما من قبيل الواجب الأخلاقي ، أو بمعنى أصح واجب نحو الله ، أو نحو غيره من بني البشر ، أو نحو أنفسنا ، فمن خلال نوع الواجب، يمكن الحكم بحسن النوايا ، أو بسوئها ، أو بعمل القلب ، وحركة البدن . فالواجبات نحو الله ، وكثير من الواجبات الأخرى يلح القرآن الكريم على اعتبار العاملين معا ، القلب والجوارح ، قال تعالى ..

" من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا " (١)

بل اننا نجد أحيانا أن القرآن الكريم يبرز عمل القلب وحده لكونه ذا قيمة فى ذاته

" أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى "(٢)

وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : " انما الأعمال بالنيات "

---

١ - سورة البقرة آية (٦٢)

٢ - سورة الحجرات آية (٣)

قال فيه العلماء إن كل الأعمال ، أقوالها وأفعالها ، فرضهـــــا ونفلهـــا ، قليلها وكثيرها ، الصادرة من المكلفين المؤمنـــــين ، صحيحة أو مجزأة ، لا عمل فيها إلا بالنية ، إلا ما يستحيـــــل دخولها فيها ، كالنية نفسها ، ومعرفة الله سبحانه وتعالـــــى ، فان النية فيهما محال .

والعمل الباطني ، الذي مصدره القلب ، والقلب مستودع النيـة ، يظهر أثره على الجوارح في صورة عمل ظاهرى ، فالعمل الظاهـــرى انعكاس للعمل الباطني ، فلو فسد القلب لا معنى ولا قيمة لعمـــل الجوارح من صلاة ، وصيام وغيره ، بل ان المداومة على الطاعـــات ، مع صلاح القلب ، ينمى الاستعدادات الفطرية فيه ، ويزيدها تأصيلا نحو المزيد من فعل الخير ، ألم يؤكد القرآن الكريم أن الاحســـان يثبت النفس ، فقال جل ذكـــره :

" .. وينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا من أنفسهم "(١)

ويطهـــر الإنســـان ، ويزيـــد فـــى قيمتـــه

" تطهرهـــم وتزكيهـــم بهـــا " (٢)

وعلى كل فان النية لها ثلاث حالات :

١ - الحالـــة الأولى :

اذا كان العمل يحدث بلا نية ، وهـــي

---

١ ، ٢ - ســـورة البقـــرة آيـــة (٢٦٥)

حالة البطلان الأخلاقي ، أى حالة رفع التكليف عن المكلف .

٢ - الحالة الثانية :

اذا كان العمل والنية حاضرين ، ولكن يعتورهما بعض النقص ، لسوء النية ، في عمل غير أخلاقي أو غير شرعي ، أو في حالة انحراف ، لعمل يحتمل الإدانة أو العفو .

٣ - الحالة الثالثة :

اذا كان العمل والنية حاضرين ، ومتطابقين وهذه حالة الأخلاقية الكاملة ، أو أداء الواجب..

ثم إن النية وحدها خير أخلاقي يمكن تقديره ، لكنه على أية حال لا يتساوى فى القيمة مع العمل الأخلاقي الكلي ، فالجانب الغائي للارادة لا بد من اعتباره ، فأنا قبل أن أعمل ، أعرف ما ينبغي أن أعمل ، وبهذا الاعتبار أمضى إلى فعله ، وعندما أكون بسبيلي إلى آدائه أعرف أن ذلك هو واجبي ، فافعله عن وعي ، وبقصد ، ونية .

فهناك دوافع خفية ، أو واضحة ، لأعمالنا ، هذه الدوافع هى التي تحرك الإرداة فينا ، أو تثير الباعث على الإقدام على العمل

وهذه الدوافع الخفية ، مع كونها خفية ، فانها لا تغيب عن رقابة الله الذى هو ..

" عليم بذات الصدور "(١)

" الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير "(٢)

ولهذا نرى الشريعة ، أو الأخلاق الدينية ، تحث المرء على اختبار ضميره دائما ، بغرض تحريره من أي تأثير خارجي ، سوى تأثير الشرع .

إن النفس المؤمنة بالله لا ترتد إلى حالة اليأس القاتل ، ولا نحو التساهل المفرط ، فوصف الله ذي العزة والجلال بأنه موجود في كل مكان ، يملأ نفوسنا هيبة واهتماما ، ويدعونا إلى الصرامة نحو أنفسنا ، لأنه سبحانه يحصى عليها كل صغيرة وكبيرة ، لكن يخفف من تلك الصرامة صفة الرحمة التي تتصف بها الذات العلية ، حيث تمتد رحمته سبحانه إلينا قبل أن نبلغ بالصرامة حد اليأس القاتل .

والقرآن الكريم يصف لنا حالة نفس المؤمن ، فهى ليست يائسة من روح الله ..

" انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون " (٣)

ولا هي آمنة من مكره ..

" فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون " (٤)

---

١ - سورة المائدة آية (٧) ٢ - سورة الملك آية (١٤)

٣ - سورة يوسف آية (٨٧) ٤ - سورة الاعراف آية (٩٩)

وانما هي دائما في منتصف طريق ، بين الأمل والخوف ، أو بالأحرى تغذى كلا الشعورين فى وقت واحـــد ..

" يحـذر الآخـرة ، ويرجـو رحمـة ربـه " (١)

واذن فهو حوار حي ، بين لطف وهمة ، وشجاعة وأمل .. ألـــم يعلمنا القرآن مكانا للفظ وسط بين طرفين متباعدين ، الخير والشر ، ومجالا للمسموح به ، بين ما هو مأمور به ، ومنهى عنه ، وبهـــذا المعيار للحالات الثلاث يكون الباعث على العمل ، أي الدوافـــع التى تحرك السلوك .

فالنيـــة الحسنـــة هـــى :

حركة تعدل بها الإرادة الطائعة عـــن كل شيئ ، طوعا أو كرها ، ظاهـــرا أو باطنا ، كيما نتوجه نحو الجانـــب الذي نتلقى منه الأمر ، إنها إنفصال عن الناس ، وعن أنفسنا واتصال بالمثل الأعلى ، والأزكى ، والأكمـــل ، وهـــو اللـــه جـــل وعـــلا .

فاذا كانت النية مطابقة لقصد الشرع ، أي بدافع الواجب كانـــت

---

١ - ســورة الزمـــر ، آيـــة (٩)

نية حسنة ، وان كانت مطابقة لقصد عفوه ، أي الإفادة من الرخصة ، كانت نية مقبولة ، وان كانت مخالفة لما حدده الشرع وقصده ، فهي نية سيئة ، أو آثمة . وبمعنى أوضح يحكم عليها بمدى إخلاصها في العمل لوجه الله ، أو لهدف نفعي .

ونرى الداعية بعد ذلك ، بل وأثناء عرضه للفقرات السابقة في موضوع النية والدوافع ، يستعرض العديد من النظريات الحديثة ، ويبين ما وقعت فيه من أخطاء ويخلص من ذلك إلى أن المنهج القرآني هو الأدق والأحكم لبيان الطوايا والنوايا ، لبني الإنسان ، مستشهدا بالعديد من الآيات القرآنية ، والآثار النبوية على صحة ما يقوله ، أو يراه ، معددا ألوان النوايا السيئة ، كنية الاضرار ، والتهرب من الواجب ، والحصول على كسب غير مشروع ، وارضاء الناس ، أي الرياء ، ومن حالة اخلاص النية واختلاط البواعث ، أي اشتراك مجموعة من البواعث لتنفيذ عمل بحيث يصعب تحديد واحد منها بالذكر على غيره ، في سبيل الحكم على الغرض من هذا العمل.
وهو في كل ذلك كالطبيب الماهر الذي يضع اصبعه على مكان الألم من جسم المريض من أول وهلة ، ويصف الدواء الشافي ، بإرادة الله .(١)

---

١ - أنظر فيما سبق دستور الأخلاق في القرآن "مصدر سابق" ٤١٩ - ٥٦٤

٥ - الجهـــــد :

ابتدأ الداعية ، الدكتور دراز ، للدخول فى هذا الموضـــــوع بالتذكير بما سبق أن قدمه من تمييز بين" النية " و " العمل " مبينـــا أن الموقف يحتاج إلى زيادة ايضاح للأهمية الفائقة لعنصر العمـــل ، حيث أنه السلاح الوحيد ، الهجومي والدفاعي ، في معركة الفضيلة.

إن النفس الإنسانية خلقت ذات طبيعة ناقصة ، لكنها قابلـــة للتطور نحو الكمال ، لتعويض هذا النقص . فالمرء يولد محروما مـــن جميع المعارف ، العقلية والحسية ، لكنه ما يلبث أن يستحوذ علـــى تلك المعارف شيئا فشيئا ، عن طريق الملكات التى حباه الله بهـــا ، كى يصل عن طريقها لتحقيق الغاية المثلى ، وهى معرفة الله ، ثم باقى المعارف الأخرى ، قال تعالـــى :

" والله أخرجكم من بطون امهاتكم ، لا تعلمون شيئـــا ،
وجعل لكم السمع ، والأبصار ، والأفئـــــــــدة "(١)

وعندما خلق الله النفس الانسانية ، وسواها من قديم ، استودعهـــا فكرتـــى الخـــير والشـــر .

" ونفس وما سواها ، فألهمهـا فجورهـــا ، وتقواهـــا "(٢)

وهى مع تأهيلها بتلك الملكات ، والحواس ، تظل دائما قابلة للترقى والتردى ، وفى حالة بين الازدهار والذبول ، وبين التقدم والانحدار ،

---

١ - ســـورة النمـــل ، آية (٧٨) ٢ - ســـورة الشمس آية (٧-١٠)

وذلك كلـه بتأثير مـن ارادتهـا الخاصـــة ..

" قد أفلح مـن زكاهـا ، وقد خاب من دســـاهـا " (١)

ومن ثم لبعث الضرورة الأخلاقية ، أو بالأحرى التكليف الشرعـــى ، بأن يعمل الانسان ، وأن يتحمل مسؤولية عملـــه ..

" وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ، ورسولـه " (٢)

غير أن الجهد لا يتحدد من خلال العمل فقط ، وانما مـــن خلال العمل المؤثر الفعّال ، الذى يكون موضوعـه :

* إما مقاومــة قـــوة

* أو قهـــر مقاومـــة

وهما معنيـــان متماثـــلان .

فعلى صعيد الابداع الخيّر ، يصادف الفكر غالبا في الموضـــوع ، وفي نفسه ، عقبتين ، وعليه أن يتخطاهما :

* خمود المادة التى يجب تحويلها إلى عمل مبتكر

* أو نقـــص الهمـــة فـــى الارادة الفاعلـــة .

والأمر كذلك عندما يجب الامتناع عن الشر ، فى مواجهة القـــوى التي تدفعنـا اليه ، ففي هذه الحالات جميعها لا يكفـــــي أن " نعمل " بل يجب أن " نجاهد بقوة واصرار "

ذلك أن العمل وحده ، أو بذل الجهد فقط ، غريزة طبيعيـــة

---

١ - ســورة الشمــس آيــة (٩-١٠)

٢ - ســورة التوبــة آيــة (١٠٥)

فطر عليها الانسان ، فهو فى صراع دائم مع الحياة ، منذ ولادته حتى وفاته ..

" يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه "(١)

غير أنه فوق هذا الجهد الطبيعي يوجد جهد آخر يقتضيه العقل ، وهو الجهد الذي أوجبه الشرع ، أو بمعنى آخر ، الجهاد الثابت المستمر سواء من أجل فعل الخير ، ومقاومة الهوى ، أم في مواجهة الشرور ، وكظم الغضب ، أم لأداء الواجبات الدينية .

فهناك جهدان :

* جهد المدافعة

* وجهد المبدع

فأما جهد المدافعة :

فهو تلك العملية التي نوضع فيها فى مواجهة الميول الخبيثة التي تدفعنا أو تحثنا على فعل الشر ، حيث يقتضي الموقف إنبعاث قوة مقاومة ، قادرة على دفع هذا التأثير ، والتغلب عليه ، ونجد القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه ، لا يفتأ يطالبنا بهذه .... المقاومة ، ويعد الذين يقهرون شهواتهم

---

١ - سورة الانشقاق آية (٦)

بأعظم المثوبة ..

" وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هى المأوى "(١)

وان فى صوم شهر رمضان المبارك ، حكما عديدة ، يأتي فى مقدمتها كبح جماح النفس الشهوانية ، وتحطيم عبودية الجوارح .

وأما الجهد المبدع :

فهو ليس مجرد النزوع إلى فعل الخير ، .. وانما ارادته محددا ومعرفا ، بكيفه ، وكمه ، وغايته ووسائله ، ومكانه وزمانه ، وكل ما يفيد تحديدا لداعية هذا الخير ، وبكل ما يبذل فى الحصول عليه من جهد ، وطاقة ، دون تراخ أو اتكالية .. والقرآن الكريم يستثير همتنا دائما لمواصلة هذا الجهد ، مستعملا الفعل (عمل) فى حالة اللزوم ، مصاحب بأوامر وعظات ، حسب المقام ،فيقول ..

" اعملوا ، فسيرى الله عملكم "(٢)

---

١ - سورة النازعات ، آية (٤١) ٢ - سورة التوبة ، آية (١٠٥)

" ونعم أجر العاملين "(١)

ثم إن هناك للجهد المبدع مرحلة ثانية ، أو معنى ثان ، وهو أنه لا ينحصر فى مجرد اختيار ارادي ، أيا كان نوعه ، بل إن هذا الاختيار الإرادي ، ينبغى أن يكون صالحا فى ذاته ، أو بالأحرى مستلهما من الشرع ، ومتطابقا مع قواعده ، وأن يرتقي الجهد المبدع درجة ثالثة وهى البحث عن الأفضل والأحسن فيما بين العديد من الأعمال المتفقة نوعا ، ودرجة ، وكما وكيفا ، لكنها تختلف اختلافا دقيقا ، بحيث يحتاج إلى مزيد من الجهد لمعرفته ومن ثم اتباعه ، والقرآن الكريم يحث المؤمنين إلى هذا النوع من الجهد ، يقول سبحانه :

" فبشر عباد ، الذين يستمعون القول
فيتبعون أحسنه "(٢)

وقوله تعالى :

" واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم "(٣)

---

١ - سورة آل عمران ، آية (١٣٦) ٢ - سورة الزمر آية (١٧)

٣ - سورة الزمر ،آية (٥٥)

وغير ذلك من آيات عديدة ، وهكذا يدعو
القرآن المؤمنين إلى أن يبتغوا فى سلم
الأعمال أسماها ، وأقواها تأثيرا ، وأكملها
غاية ، وعلى كل فان العناصر الثلاثة التى
يتكون منها الجهد المبدع هى ..

* الاختيار الإرادي
* الاختيار الصالح
* الاختيار الأفضل

ولقد أثبت القرآن الكريم هذا المبدأ الثلاثى ، المتمثل فى

* الفرض
* المباح
* المحرم

وبهذا المقياس الدقيق تتجلى الحكمة القرآنية للربط بين الحرية
والتنظيم .

ففى مجال آداء الفرض ، والواجب ، وفى الوقت الذي يحتم
القرآن ، أو الشرع على المؤمن ضرورة آدائهما ، إذا به يخفف من
أصل التكليف ، ويحفظ للشخصية الإنسانية قيمتها وكيانها ، حتى
لا تتحول إلى مجرد آلة ، وذلك كله بالترغيب ، وبالمثوبة ، لمن
يبادر بآداء ذلك الفرض والواجب ، بل ليس مجرد آداء ، وانما
الاداء على وجه الكمال ، والدقة ، وكلما ارتقى الاداء ، كلما

ارتقى المقابل ، وأمام ذلك كله فالنفس لها مطلق الحرية في الاختيار على الوجه الذي يلائمها .. وما يقال في الواجب يقال أيضا في المباح من اتساع اطاره لعدة مراتب ، تتوافق مع طموحات كل نفس ، وحرية اختيارها .. وأيا كان فان الانسانية بصفة عامة، وفى كل عصر وأوان ، تجد فى القرآن الكريم قاعدة أخلاقية تلائم ما يواجهها من مشاكل ، وعلاجا لأمراضها ومحنها ، وأدنى ما يمكن أن يقال عن الأخلاق فى القرآن الكريم أنها ..

أخلاق متكاملة .(١)

---

١ - أنظر فيما سبق دستور الأخلاق فى القرآن "مصدر سابق" ٥٨٣ - ٦٥١

المبحث الثاني :

الجانب العملي ، أو التطبيقي للأخلاق

::

إن الجدوى من دراسة الأخلاق النظرية ، تتمثل في تعريفنا بما يجب عمله ، أو الالتزام به ، وآداؤه في صورة مثلى ، لكن هذا لا يشبع الحاجة العقلية لدينا ، وهو بالأحرى جانب ثانوي من المشكلة الأخلاقية ، فمن الممكن أن يكون المرء فاضلا ، دون أن يستطيع تعريف الفضيلة ، فحاجتنا إذا إلى أن نرى الفضيلة حقيقة واقعية ، هذا أعظم بكثير من حاجتنا إلى تعريفها . وهذا هو المنهج الواقعي الذي ينادي به عموم الدعاة الفاهمين مثل سيد قطب ، المودودى ، والبهى الخولى .(١)

هكذا بدأ الداعية الدكتور دراز الدخول إلى موضوع الجانب التطبيقى للأخلاق أو الجانب العملي منها ، وهو أسلوب يستحث به الهمة ، ويبعث في الفكر والخاطر وسائل التحفز ، والتنبيه لما سيأتى.

---

١ - سيد قطب /فى ظلال القرآن - دار احياء الكتب العربية - الطبعة الثانية
- المودودى . نحن والحضارة الغربية - أبو الأعلى المودودى - الدار السعودية ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م
- البهى الخولى / تذكرة الدعاة مكتبة الفلاح بالكويت - الطبعة السادسة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٩م

بينما نرى العديد من باحثي علم الأخلاق ، أو المؤرخين لـه ، عندما يتعرضون لهذه النقطة من بحوثهم ، ينهجون نهج غيرهم من السابقين ، من تقسيم الشئ إلى فرعين ، أو قسمين ، أو أكثر مثلا ، ثم يوردونها دون ما يبعث على الهمة فيقولون مثلا :

ينقسم علم الأخلاق إلى قسمين :

قسم للأخلاق النظرية

وهو الذي يحتوى على تاريخ تدوين المذاهب والنظريات الأخلاقية ، وعمل المقارنة اللازمة بشأنها . إلى آخر تلك الموضوعات ..

وقسم للأخلاق العملية

أي تطبيق تلك النظريات في الحياة العامة أو عدم تطبيقها ، أو البحث عن مدى التزام الناس بتطبيقها ، أو عدم التزامهم . والبحث عن علاج لعدم تطبيقها ، إلى آخره ، وذلك مثل التزام الناس بتطبيق الفضائل ، والبعد عن الرذائل .

بحيث تكون شيمة المجتمع ، أي مجتمع كان ، يتمسك أبناؤه مثلا بفضيلة الحكمة ، والعفة ، والشجاعة ، والعدل ، والصبر ، والصدق والاحسان ، والوفاء بالوعد ، والإيثار ، وغير ذلك من فضائل

عامة أو فضائل نوعية كالفضائل الاجتماعية كواجبات الأفراد ، والمجتمع، وحقوق الأفراد والمجتمع . وغير ذلك من دراسات . (١)

وأيا كان فان دراسة الأخلاق لن تجدي نفعا اذا ماترك أحد شقيها ، أو استخف بجانب من جانبها ، ذلك أنها من ناحيتها النظرية : علم بما جاء به الأخلاقيون من نظريات في الخير والشر ،

وما يتصل بها من نظر في الحرية الإنسانية وعناصرها ، وما يترتب عليها من مسئولية ، وما يشهد بهذه المسئولية من هدى العقل والضمير ، وما قد يترتب عليها من ثواب للمحسن ، أو عقاب للمسئ ، وما إلى ذلك من بحوث نظرية ، ثم هي بعد ذلك كله :

فنّ تطبيق هذه النظريات عمليا ، كي يتسنى تحديد الواجبات ، وترتيبها حسب أهميتها ، ثم بيان ما للفضيلة والرذيلة من آثار في مجرى الحياة العملية ، وكيف يتأتى للمربين أخذ الناشئ بتعاليم الفضيلة ، والبعد عن مهاوى الرذيلة حتى ينبت نباتا حسنا . (٢)

ثم ان منهج البحث لدى باحثي علم الأخلاق ، هو في الغالب يمثل فيما أوردناه من تقسيم إلى شقين نظري ، وعملي . والبدء

---

١ - أنظر فى ذلك كتاب " تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية " للأستاذ / أبو بكر ذكرى. ط٣/١٣٧٨هـ/١٩٥٨م القاهرة.

٢ - أبو بكر ذكرى " المصدر السابق " ٤٧

في العملي عن التحدث عما قيل في الفضائل من تعريفات ثم الاتيان بثمرات الفضيلة ، أو آدابها العامة ، كالحكمة ، والشجاعة ، والعفة، وغير ذلك من فضائل عامة ، أو فضائل نوعية ، كالحقوق والواجبات الـخ .

أما الداعية الدكتور دراز فانه نهج نهجا مغايرا لذلك ، حيث كان همه هو التركيز على ما في القرآن الكريم من مبادئ وتعاليم أخلاقية ، واظهارها لمن يجهلها ، وبيان ما ترمي إليه من الارتقاء بمستوى الإنسان إلى أسمى الدرجات ، والتي لو اتبعها لنال أعظم سعادة في الدنيا ، والآخرة ، وبالتالي ارتقت المجتمعات الإنسانية إلى ما يمكن أن تتمناه ، أو تحلم بتحقيقه ، بينما ركز الباحثون الآخرون على ذكر نوعيات تلك الفضائل ، وبيان جدواها ، وأهمية الالتزام بها ، كي يسعد الانسان في الدنيا ، وتسعد المجتمعات.. ولا ريب أن الفرق واضح بين المنهجين .

وقد بدأ الدكتور دراز بالحديث عن الأخلاق الفردية ، أو بالأحرى الأخلاق لدى الفرد ، وذلك لأن الفرد هو الأساس والركيزة التي تبنى منها الأسر ، والمجتمعات ، فمتى صلح صلحت الأسرة ، وبالتالي صلحت المجتمعات .. فالنهوض بتربية الفرد أخلاقيا له الأولوية بالإهتمام ، والأولوية أيضا في الذكر .

فبدأ بذكر الآيات القرآنية الكريمة المتضمنة توجيه الفرد لبذل الجهد للتعليم ، واكتساب المعرفة بصفة عامة ، والسلوك الأخلاقي ، وبذل

الجهد للتحلي بالأخلاق الكريمة ، وطهارة النفس ، والاستقامة في السلوك العام ، والعفة وغض البصر ، والتحكم فى الأهواء ، والامتناع عن شهوتي البطن والفرج ، وكتم الغيظ ، والصدق ، والرقة والتواضع ، والتحفظ فى اصدار الأحكام ، أو ابداء الأراء دون دليل ، وتجنب سوء الظن ، والثبات والصبر ، والقدوة الحسنة ، والاعتدال فى الأعمال والأقوال ، واخلاص السرائر ، وأن الله سبحانه وتعالى اذا كان قد كرم الانسان ، وأنزله منزلة كريمة ، فقد نهاه أن يحط من شأن تلك المنزلة ، ويبتذل انسانيته التي كرمها الله ، وذلك بأن يبتذلها فى مواطن السوء ، أو يدفع بنفسه إلى الانتحار ، أو بتر عضو من أعضائه ، أو تشويهه . أو أن يكذب ، أو ينافق ، أو يقول مالا يفعله ، أو يرائي ، أو يختال ، أو يبخل ، أو يسرف ، أو يحسد ، أو يطمع فيما ليس له ، أو يأتى الفاحشة أيا كانت. وغير ذلك من أمور نهى الله عنها ، بينما هناك العديد من المباحات ، والطيبات التي لا حرج على الانسان فى إتيانها ..

ثم استطرد الداعية الدكتور دراز فى بيان الأخلاق الأسرية ، مبينا الواجبات نحو الأصول والفروع ، أي نحو الوالدين من الاحسان اليهما ، وخفض الجناح لهما ، وطاعتهما ،ثم الواجب نحو الأبناء - وهم الفروع - من عدم قتلهم خوفا من الفقر ، ومن ضرورة تربيتهم تربية أخلاقية كريمة ، ثم الواجبات نحو الأزواج ، ودستور الزوجية ، والعلاقات المحرمة ، والعلاقات المحللة ، والخصال المأمور بها ، والمستحبة ، وعنصر الرضا المطلق الذي ينبغي أن يسود بين

الزوجين ، والصداق ، وشروط تعدد الزوجات ، ثم ما يجب أن يسود الحياة الزوجية من روابط مقدسة ومحترمة من الطرفين ، وأن الغاية من الزواج تتمثل في المودة ، والعطف ، والرحمة ، وسلام واطمئنان داخلي للزوجين ، لكي يأتي التناسل منهما ، وانتشار النوع في جو يسوده العطف والمودة ، فيسهل نموه ، وارضاعه المبادئ الأخلاقية الكريمة ، ثم ما يجب أن يسود أيضا من مساواة في الحقوق والواجبات التي حددها الشرع ، وكذا التشاور والتراضي ، والتعامل الإنساني ، والمعاشرة بالمعروف حتى في حال الكراهية ، ومعاودة الاصلاح في حال النزاع ، والتحكيم ،فاذا انتهى أسلوب الصلح إلى طريق مسدود ، فلا مناص من الفراق بينهما بالطلاق ، وهو أبغض الحلال الى الله ، تعقبه فترة انتظار ، تقيم فيه الزوجة في بيت الزوجية ، وتعامل بالمعروف على أمل أن تصفو النفوس ، وتصلح الأيام ما بينهما ، ويعودا للاستمرار في البناء الأسري فاذا لم يعد الصفاء فالفراق النهائي بالطلاق البائن ، وحقوق الزوجة بعد الطلاق ، ثم تحدث بعد ذلك عن الواجبات نحو الأقارب ، وهم في محيط اطار الأسرة ، ما لهم من حقوق ، وصلة رحم ومن وصية ، ومن ارث ، ومن قواعد قسمة الارث ، وهي الفرائض التي فرضها الله في كتابه الكريم . وغير ذلك من أمور تعزز الرابطة الأسرية ، وتعالج العديد من مشاكل المجتمع ، والأسرة والفرد .. كل ذلك أورده في اطار الآيات القرآنية الكريمة التي تحتم العمل به ، أو ترغب فيه ، كل حسب حكمه الشرعي .

ثم نرى الداعية بعد أن تعرض بالذكر لأخلاق المسلم ، وأخلاق .. الأسرة ، نجده يتعرض بالذكر لأخلاق المجتمع الأكبر ، وهو المجتمع الذي تتكون منه الدولة ، فيذكر الآيات القرآنية الكريمة ، التي تخاطب جمهور المسلمين ، أو تناديهم ، أو تحثهم على فعل شيء ، أو الالتزام به ، فهي لا تخاطب فردا فردا وانما تخاطبهم جميعا ، بمعنى أن حكم المخاطب به يلزمهم جميعا ، كمجموعة وكأفراد ..

فمن المحظورات : قتل الانسان ، والسرقة ، والغش ، والربا ، والاختلاس ، والتملك غير المشروع ، وأكل مال اليتيم ، وخيانة الأمانة ، والظلم ، والتواطؤ على الشر ، والدفاع عن الخونة ، وعدم الوفاء بالأمانة وبالوعد ، والغدر والخداع ، وغش القضاة ، وافسادهم ، وشهادة الزور ، وكتمان الحق ، وقول السوء ، وسوء معاملة اليتيم والفقير ، والسخرية من الغير ، واحتقار الناس ، والتجسس ، والافتراء والغيبة ، وسوء القصد ، وسرعة تصديقه ، والاساءة إلى سمعة الناس ، بقذفهم والطعن في شرفهم ، والتدخل الضار بين الناس ، واللامبالاة بالشر العام . وغير ذلك .

ومن الأوامر : آداء الأمانة ، تنظيم العقود للقضاء على الريبة ،

وحفظ الحقوق ، وأداء الشهادة الصادقة ، واصلاح ذات البين ، والتشفع لا من أجل الأشرار ، والتراحم المتبادل ، والاحسان ، ولا سيما إلى الفقراء ، واستثمار أموال اليتامى ، وتحرير العبيد ،وتيسير حريتهم ، والعفو ، ودفع السيئة بالحسنة ، وبيان عدم تجاهل الاساءة في كل حال ، والدعوة إلى الخير ، والنهي عن الشر ، ونشر العلم والمعرفة ، والالتزام بفضيلة العدل ، والرحمة ، والاحسان ، والأخوة ، والكرم ، والحب العام ، والايثار .

وغير ذلك من فضائل حميدة حث عليها الاسلام ، ورغب فيها ، بل أوجب الالتزام بها في كثير من الأحيان .

ومن قواعد الآداب العامة : الاستئذان قبل الدخول على الغير ، والتحية عند الدخول ، وعدم رفع الصوت ، ومناداة الكبار من الخارج ، ورد التحية بأحسن منها ، وحسن الجلسة وأن يكون موضوع الحديث خيرا ، واستعمال أطيب العبارات أثناء الحديث ، أو خلال المجلس، وكذا الاستئذان عند الذهاب .

ثم استعرض الداعية بعد ذلك الآيات القرآنية الكريمة التي تلـــزم الدولة بصفة عامة ، أو الحاكم أو الأئمة أو من هم على قمـــــــة المسئولية ، بما ينبغى أن يلتزموا به أخلاقيا وأدبيا .

فمن حيث الواجبات : عليهم مشاورة الشعب ، أو الأمة ، وتوقيـــع القرارات النهائية طبقا لقاعدة العدالة ، واقرار النظام العام ، وصون الأموال العامة وعــــدم المساس بها ، وعدم قصر الانتفاع بها علـــى الأغنياء ، وارساء قاعدة العدالة فى الحكـــم بين الناس ، وكفالة حرية الأقليات داخـــل داخل المجتمع الاسلامـــى .

أما الواجبـــــات المطلوبة مــــــن الرعيـــــة فهى : النظام ، والطاعة المشروطة ، والاتحاد حـــول المثل الأعلى ، والتشاور فى القضايا العامـــة ، وتجنب الفساد ، والرقابة الأخلاقية ، وتجنـــب موالاة العدو ، أو التعامل معه .

ومن حيث العلاقات الخارجيـــــــة : ففى الأحوال العامة الاهتمام بالسلام العــــام ، والعمل على استتبابه ، والدعوة إلى الاســـلام دون إكراه ، ولا إثارة للكراهية ، وتـــــرك الاستبداد ، والإفساد ، وترك المساس بأمـــن

المحايدين ، وحسن الجوار ، والعدالـــة ،
والبر ، لمن أعطى الأمان فى دار الاسلام .

ومن حيث الخصومـــة : ترك المبادرة بالشر ، وعدم القتال فـــي
الأشهر الحرم ، أو في الأماكن المحرمـــة ،
أما الحرب المشروعة ، فهي للدفاع عـــن
النفس ، ومساعدة المستضعفين ، ورد ....
اعتداء المعتدين ، فاذا نشب القتال فـــلا
تعرض إلا للمقاتلة من الخصوم ، دون النساء ،
والولدان ، والعجائز ، ومن لم يحمل السيف
ويقاتل فى الصفوف ، وكذا رجال الديـــن
الذين أغلقوا على أنفسهم أماكن عباداتهـــم ،
ثم إذا تم اللقاء فلا هروب ، وإنما الثبات ،
والصبر ، والمجالدة والمصابرة ، دون خشية
من الموت ، فهو آت لا مفر منه ، وأفضلـه
ما يكون فى سبيل الله ، ثم الحذر مـــن
مكائد الأعداء ، ومؤامراتهم ، وعـــدم
الاستسلام لهم ، فاذا أبرمت معاهـــدات
أو اتفاقيات فينبغى الوفاء بها ، والالـــتزام
بتنفيذها ، والوفاء بالشروط ، حتى لـــو
كانت مضرة ، وغير مواتية ،ثم مواجهـــة
الخيانة بشدة وحزم ، ثم ينتهي من ذلـــك

بالأخوة الانسانية ، وبيان كونها رباط مقدس
يسمو فوق كل اعتبارات الجنس والنوع ..

ثم يختم بايراد
الأخلاق الدينية : فالإيمان بالله وبما أنزل من حقائق ، وبرسله
وباليوم الآخر ، والطاعة المطلقة لله ، وتدبر
آياته ، وصنعه ، وشكره على نعمائه ،
والرضا بقضائه ، والاعتماد والتوكل عليه ،
وعدم اليأس من رحمته ، أو الأمن من بأسه ،
وكذا ضرورة تعليق كل فعل مستقبل بمشيئته
سبحانه وتعالى ، ثم الوفاء بعهد الله ،
وتجنب مجالسة الخائضين فى آيات الله ،
وعدم الاكثار من الحلف بالله ، واحترام
اليمين متى حلف ، ودوام ذكر الله ، وتسبيحه
وتكبيره ، والمداومة على آداء الصلاة ، والحج
والصوم ، وآداء الزكاة ، ودعاء الله
بين الخوف والأمل ، والتوبة إلى الله ،
والتماس مغفرته ، وأخيرا حب الله ، وأن ..
يكون حبه فوق كل شئ .

وبهذا ختم الداعية مجموعة الفضائل الأخلاقية بأسمى الفضائل
وأعلاها قدرا ، وهى محبة الله ، وبحيث يغمر حبه القلب والفؤاد

والجوارح ، فلا يرى إلا محبة الله فى كل أعماله وأقواله ، فيحبه الله ، ويكون من المقربين ، وتلك درجة تشرئب إليها أعناق المؤمنين الأوابين .

ولعلنا نود الاشارة هنا إلى تلك الفقرات ، هى عبارة عن ...... عناوين لفضائل جمة ، كل عنوان منها تندرج تحته فضيلة من الفضائل ، وترى الدكتور دراز قد أتى بالآيات القرآنية الكريمة ، التي تحث على التمسك بفضيلة ما من الفضائل دون أن يشرحها أو .. يتحدث عنها ، بينما تعرض كثير من الباحثين إلى ذكر كل فضيلة من تلك الفضائل ذكرا واضحا ، وشاملا لها من كل النواحي ، متعرضين لتعريفها ، وما قيل منها قديما وحديثا ، ثم جاء به الاسلام .

فمثلا عند قضية العفة : ورد تعريف لها عند الجاحظ ، وابن مسكويه ، والفرق بينها وبين القناعة ، وما ورد بشأنها فى القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما قيل بشأنها فى الشعر العربى ، ومن مأثور الأقوال ، ومضاهاة ذلك بما قيل عنها فى النظريات الحديثة مثلا .(١)

وربما كان من الأفضل للدكتور دراز أن يتوسع ولو قليلا في إيراد حديث ولو بشكل موجز عن كل فضيلة من الفضائل العملية التي أورد بيانها ، ورتبها ترتيبا جميلا ، حيث بدأ بالاهتمام بفضائل الفرد ، ثم الأسرة ، ثم المجتمع ، ثم الدولة ، وكان الختام هو المسك بذكر الواجبات نحو الله .(٢)

---

١ - أبو بكر ذكرى " المصدر السابق " ٥٦ - ٦١

٢ - أنظر فيما سبق دستور الأخلاق فى القرآن "مصدر سابق" ٦٨٩ - ٧٧٨

الفصل الخامس

==========

الجانب الاجتماعي في الاسلام

تكريم الله للانسان.

مشكلة الرق وكيف عالجها الاسلام.

الاسلام وفكرة المسئولية الاجتمعية.

المسئوليات الاجتماعية الكبرى.

....

المبحـث الأ ول :

تكريـم اللـه للانسـان

::::::::::::::::::::::::::::::::::::

يقول تعالى فى كتابه الكريـم :

" ولقد كرمنا بني آدم وحملنهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبت وفضلنٰهم على كثير ممّن خلقنا تفضيـلا "(١)

" لقـد خلقنـا الإنسـان فـي أحسن تقويـم " (٢)

الفرد أساس بناء المجتمع ، وعنصر العلاقات والفاعلية والحركة الإنسانية فيه ، وهو أكرم شيء في الوجود منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام ، وإلى أن يرث الأرض ومن عليهـا .

لقد كرّم الله الإنسان كإنسان من غير اعتبار آخر فالناس جميعـا أخوة متساوون ، وهو مكرم عند الله لأنه من روح اللـه

" ونفخـت فيـه مـن روحـي " (٣)

وهو مكرم عند الله بما سخّر له في السموات والأرض والبحـر ..

---

١ - سـورة الاسـراء آيـة (٧٠)   ٢ - سـورة التين آية (٤)

٣ - سـورة الحجـر آيـة (٢٩)

" وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا "(١)
" وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم
الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين
وسخر لكم الليل والنهار " (٢)

ولقد قرر الاسلام الكرامة للشخصية الانسانية ، فكانت كرامة مثلثة وليست مفردة ((كرامة هى عصمة وحماية ، وكرامة هى عزة وسيادة ، وكرامة هى إستحقاق وجدارة .. كرامة يستغلها الانسان من طبيعته : " ولقد كرمنا بنى آدم "(٣) وكرامة تتغذى من عقيدته " ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين "(٤) وكرامة يستوجبها بعمله وسيرته " ولكل درجات مما عملوا "(٥) " ويؤت كل ذى فضل فضله "(٦)))(٧)

---

١ - سورة النحل آية (١٤)

٢ - سورة ابراهيم آية (٣٢/٣٣)

٣ - سورة الاسراء آية (٧٠)

٤ - سورة المنافقون آية (٨)

٥ - سورة الأحقاف آية (١٩)

٦ - سورة هود آية (٣)

٧ - د / محمد عبد الله دراز " دراسات اسلامية فى العلاقات الاجتماعية والدولية " طبعة أولى ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م دار القلم - الكويت - ٣٣

حقــوق الفــــرد :

ويترتب على هذه الكرامة التي منحها الاسلام للفرد حقــــوق وحقــوق ، هي سياج من الصيانة والحصانة له ، وهي الأساس الذي تقوم عليه علاقاته ، والدرع الذي يقيه من نزوات الطغاة ، ويحميــه من الافتئات عليه أو محاولة انتهاك كرامتــه .

وهي صيانة وحصانة لكل فرد سواء كان ((ذكر أو أنــــثى ، أبيض أو أسود ، ضعيفا أو قويا ، فقيرا أو غنيا ، من أي ملــة أو نحلة فرضت .. ظل ظليل ، ينشره قانون الاسلام على كل فــرد يصون به دمه أن يسفك ، وعرضه أن ينتهك ، وماله أن يغتصــب ، ومسكنه أن يقتحم ، ونسبه أن يبدل ، ووطنه أن يخرج منه أو يزاحم عليــه ، وضميره أن يتحكم فيه قسرا ، وتعطل حريتــه خداعــا ومكــــرا .))(1)

وهي قبل كل شئ ((سياج من الحرمة والعصمة والصيانة والحصانة، تصون صاحبها من أن يهون على الناس أو يضيعــوا حقا من حقوقــه أو أن ينتهكوا حرمة من حرماته .. ذلك هو جانبها السلمي الخارجي الدفاعــي .

أما حقيقتها الايجابية الانبعاثية ، فانها تاج من الشرف والنبــل يتقاضى صاحبه أن ينظر إلى نفسه نظرة احترام وتكريم ، نظـــرة

---

١ - دراسات اسلامية " مصدر سابق " ٣٣ ، ٣٤

يعرف بها أن مكانته في هذا العالم مكانة السيد لا المسود . لا أعني سيادة الانسان على الإنسان ، فالناس في نظر الاسلام كلهم سيد نفسه ، لا سيادة لأحد على غيره ، ولا سيادة لغيره عليه)) [1]

---

١ - د / محمد عبد الله دراز " دراسات اسلامية " مصدر سابق ٣٥

مشروعية الدفاع عن الحقوق الفردية :

ولم يكتف الإسلام أن حقق للفرد كرامته وما يترتب عليها من حقوق بل كلفه بأن يدافع عن حقه وأن يقاتل دونه وأن يبذل نفسه من أجله .. يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

" من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد "(١)

بل ان القرآن الكريم لام المستضعفين على ركونهم إلى الذل والخوف ، والركون إلى الاستسلام رغبة فى السلامة وخوفا من فراق الأوطان .. قال تعالى ..

" ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا "(٢)

ثم تأتي بعد ذلك كرامة العمل الصالح التي يحققها الفرد ويكتسبها اكتسابا فى عمله وسلوكه مسترشدا بأمر ربه وهداه و ((انها لعلى درجات متفاوتة تسير طردا وعكسا على نسبة الاتقان والاخلاص فى العمل))(٣) ..

---

١ - رواه أبو داود والترمذى ٢ - سورة النساء آية (٩٧)
٣ - دراسات اسلامية " مصدر سابق " ٣٦

المبحث الثاني :

مشكلة الرق وكيف عالجها الاسلام

ان موقف الاسلام من الرق واضح يقوم على الآتي :

((١ - منع انشائه وابتدائه .

٢ - العمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه .

٣ - عطف سابغ عليه في أثناء محنته وبليته .))(١)

ولموقف الإسلام من الأرقاء وعطفه عليهم وإظهار حقوقهم ، وترقيق القلوب عليهم كل هذا يجعلنا نقول :

((أما والله لعبد في ظل الاسلام
خير من كثير من الأحرار في كل نظام))(٢)

---

١ ، ٢ - دراسات اسلامية " مصدر سابق " ٤٢

موازنة بين حال الرق لدى الأمم السابقة وبين حالته في الاسلام :

لقد ساد الرق في زمن ما قبل الاسلام بصورة متناهية الظلم والقسوة ، ففتحت ((شرائع في الشرق والغرب . في اليونان وفي الرومان وفي غير اليونان والرومان ، فتحت أبواب الرق على مصراعيه فكان جزاء القاتل أن يكون عبدا لولي الدم ، وكان المدين الذي يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكا لدائنه ، وكان السارق الذي يضبط عنده متاع يصبح رقيقا لرب المال .

ومصداقه في قصة يوسف : " قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين "(١) .

وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من شاء وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبد الدهر ، الا أن يتفضل السيد بفكها بمحض ارادته))(٢)

فلما جاء الاسلام جاء بصيحة التحرير من ربقة العبودية ، ومن نير الرق والاسترقاق ، وأشعل الثورة ضد هذه الأوضاع المهدرة للكرامة الإنسانية ، ولكنها كانت ثورة ((حكيمة منظمة كثورته على

---

١ - سورة يوسف آية (٧٥)

٢ - دراسات اسلامية " مصدر سابق " ٣٨

الخمر وثورته على الربا ، وثورته على سائر النظم الفاسدة المزمنة ، والرذائل الموروثة المتمكنة))[١]

---

١ - دراسات اسلامية " مصدر سابق " ٣٨

خطوات الاسلام لتحرير الأرقـــاء :

ومن ثم فقد أوقف استمرار هذا الداء بأن منع استرقاق الأحـــرار وأمّنهم منه بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب .. بل انـــــه ((حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد وذلــــــك بمنع التزاوج بين الأحرار ، والاماء إلا فى حالة الاضطرار وخشيــــة العنت ، وهذا من أوضح الأدلة على أن الاسلام قبل أن يبـــــدأ بالعلاج الشافى من الرق القائم بالفعل ، أراد بهذه التشريعـــات الواقية منع انشاء فئة جديدة من الأرقــاء))[1]

أما بالنسبة لما أباحته الشريعة للمسلمين من معاملة أسرى الحـرب اما باطلاق سراحهم أو استرقاقهم أو قتلهم فجميعها ليست سواء فـــي المشروعية ، فليس فى نص القرآن أثر لقتل الأسير أو استرقاقــــــه وانما إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل ولا نجد فى متابعة سنــــة الرسول الرحيم ((أنه أذن قط بقتل الأسير إلا فى حالة شـــــاذة نادرة كان الأسير فيها معروفا بخطورته وشدة نكايته بالمسلمين ، فهو ليس قاعدة عامة وإنما هو استثناء يطبق على الشاذين الخطريـــــن وهذا ما يعرف فى لغة العصر باسم عقوبة مجرمي الحرب))[2]

---

١ ـ دراسات اسلامية " مصدر سابق " ٣٩

٢ ـ دراسات اسلامية " مصدر سابق " ٤٠

وبالنسبة للاسترقاق فان الاسلام ينظر اليه ((كنظرته إلى القتل ، كما أن الحرية فى نظره شقيقة الحياة))[1] وعلى ذلك ((فليس فى روح التشريع الاسلامى ، ولا فى نصوصه ، ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم ، أو يجعله فى نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فان لجأ الاسلام يوما إلى استرقاق الأسير ، فانما يكون ذلك منه نزولا على حكم الضرورة اتقاء لخطره وكسرا لشوكته وشوكة قومه ، على أن لا يجعل ذلك مصيره النهائى . وانما يأخذه إجراء مؤقتا وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذي يرضاه ، ويلح فى المطالبة بتحقيقه .. ألا وهو التحرير الكامل))[2]

كذلك فتح الاسلام عديدا من الأبواب التي تخرج الأرقاء إلى الحرية منها الحض والتحريض على عتق الرقاب :

" فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة "[3]

" من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار "[4]

---

١ ، ٢ - دراسات اسلامية " مصدر سابق " ٤٠ ٣- سورة البلد آية ١١/ ١٣

٤ - رواه البخارى ومسلم وأحمد بن حنبل وأبا دود وابن ماجة ونص الحديث من صحيح مسلم " من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه "

ومنهـا : تحريرهم من خلال خزائـن الدولـة ..

" انما الصدقات للفقراء والمساكين .. وفى الرقـاب "(١)

ومنهـا : الكفارات التي تقوم على عتق الرقاب لمحو خطيئة مـن الخطايـا ..

فعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قـال ..

" من لطم مملوكه أو ضربـه فكفارتـه أن يعتقـه "(٢)

وبهذه الاجراءات يكون الاسلام قد وضع من التشريعات ما يكفـل تحرير هؤلاء تحريرا كاملا ولا عجب فالحرية فكـرة أساسيـة دعـا إليها الاسلام ، وكما جاء فى كتاب التشريع الجنائي الإسلامـي للمرحوم عبد القادر عودة - الجزء الأول - يقـول ..

" نظرية الحرية .. من المبادئ الأساسية التي جاءت بهـا الشريعة الاسلامية فقد أعلنت الشريعة الحرية وقررتهـا فى أروع مظاهرها فقررت حرية التفكير ، وحريـة الاعتقـاد ، وحريـة القـول "(٣)

---

١ - سـورة التوبة آيـة (٦٠)

٢ - رواه أحمد بن حنبل ومسلم ونص الحديث فى مسند بن حنبل الجزء الثانى " من لطم غلامه أو ضربه فكفارته عتقـه "

٣ - عز الدين بليق - منهاج الصالحين - طبعة أولى ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت - ٤٤٥

أمـا أولئـك الذيـن لا يزالـون يترقبـون التحريـر فقـد أوصـى الاسـلام بهـم مـن يملكـون رقابهـم ..

فقال النبى صلى الله عليـه وسلـم :

((انهم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فاطعموهم ممـا تأكلون واكسوهم مما تلبسـون ، ولا تكلفوهم مـن الأعمال مالا يطيقـون فان كلفتوهـم فأعينوهـم))[1]

---

١ - رواه البخارى ومسلم ونص الحديث فى صحيح البخارى ..

" اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم

فمن كان أخـوه تحت يده فليطعمـه

مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهـم

ما يغلبهم فان كلفتموهـم فأعينوهـم "

المبحث الثالث :

الاسلام وفكرة المسئولية الاجتماعية

السمة العامة للمسئولية :

اذا أعطى الاسلام للفرد حقوقا فلا بد أن يكلفه بأمور ، ولقد سبق أن أشرنا إلى التكليفات الشرعية وجاء دور التكليفات الاجتماعية ، وأولها المسئولية وانما كانت أولا لأنها لازمة من لوازم المجتمعات البشرية خاصة والحياة الجماعية بصفة عامة ، وهى فردية لصيقة بالفرد ، وجماعية لصيقة بالجماعة ، وهى فى كلتا الحالتين من الاتساع والتشعب إلى الحد الذى يصعب معه حصرها بكاملها اذ لها جانبها ..

* الواضح الظاهر
* وجانبها الخفي الباطن

ولئن كان من الممكن فى حدود قدرات البشر تحديد وحصر الظاهر منها ، فان جانبها الباطن يقع تحت ادراك الفرد ذاته بالنسبة لذاته ، كما يعلمه من يعلم الغيب وما تضمر النفوس .. سبحانه.

جذور المسئولية الانسانية فيما قبل الاسلام :

ولقد وجدت المسئولية في المجتمعات البشرية بوجودها ، ثم اتسعت وتشعبت حتى صارت تقوم على أساس مسئولية الفرد قبل الجماعة وقبل غيره من الأفراد ، ومسئولية الجماعة قِبل الفرد ، ومسئولية الجميع قِبل المجتمع ذاته ، في اطار تقسيم العمل والواجبات به ، وما استنّه من قيم وضوابط وقواعد ، وما ارتضاه من نمط لحياته وعلاقات أفراده والتفاعلات بينهم في كافة مناحي الحياة به .

وما يوضع داخل هذا الاطار أيضا ، تلك التشريعات الوضعية المتعددة الأسماء ، المختلفة التبويب ، المتفاوتة الجزاء ، المادية المنطق ، التي تحدد مسئولية الفرد قبل ذاته وقبل أسرته وقبل أفراد مجتمعه ، كل ذلك في سعي محدود لضمان سلامة الفرد والمجتمع ، انطلاقا من واقع رهبة العقوبة والجزاء ، وانبثاقا عن فوقية السلطة المحدّدة والمنفذة لهذه العقوبة وهذا الجزاء .

وتأسيسا على ما سلف ، يمكن القول دون تجاوز ،أن .... المسئولية قبل الاسلام ، قامت على المادية والحسية ، وأسست على معايير بدائية ، ودارت في فلك نظم فوقية مفروضة ،

تفتقر إلى الشمولية ، وتغفل أثر ودور الفرد ذاته في هذه المسئولية ، وتهمل الجانب الأهم في المسئولية وهو كوامن النفس وما تضم وتخفى الصدور ، ولا تلقي بالا إلى السلطة الذاتية الرقابية الضابطة الكائنة داخل الذات ، والقادرة على تحريكها وتوجيهها .

أبرز مميزات المسؤولية في الاسلام :

ان مثل المسئولية التي أتى بها الإسلام مثل رجل في يوم قائظ ، ألقى بنفسه في ماء ساكن لا محدود ، فأخذت الدوائر الموجيّة تظهر واحدة اثر أخرى من حوله ، وكلما بدت واحدة جاوزت سابقتها في اتساعها وهكذا حتى تغيب الدوائر من أمام بصر الرائي وإن كان ذلك لا ينفي تواليها رغم اختفائها عن ناظريه ..

فالمسئولية في الإسلام شمولية تضم الظاهر والباطن .. متصلة تشتمل على الفعل وآثار الفعل .. واقعية تتناول التابع والمتبوع .. عادلة تأخذ كل انسان بما قدمت يداه ، إيجابية تدفع إلى الخير وتنكر الصمت على الشر والباطل .. تقييمية تقوم على موازين دقيقة من القياس والحساب .. اضطرادية تمتد إلى الزمان وما بعد الزمان .. اجتماعية تهتم بالجانب التضامني الإجتماعي ..

المسئولية بين النزعات الغريزية والارادية
وطـــرق تربيـــــــــــة الارادة :

إن الإنسان بطبيعة خلقه وتكوينه مخلوق اجتماعى ، وهو مسيّر ومخيّر معا ، مسيّر بالنسبة لعمل الطبيعة القاهرة التي لا محل للارادة فيها ، ومخيّر فيما يمكن أن يكون للارادة موضع فيه حتى لو تفاوتت قيمة هذه الارادة ..

ورغم وضوح الأفعال القسرية التي لا حيلة للانسان فيها ، والأخرى الارادية التي يأتيها الانسان بارادته ، الا أن بعض الأفعال التي تقع فى منطقة ال " بين بين " قد تخيل له أنه حين إتيانها كأنه مسلوب الارادة وأنها لم تكن من فعله فى نطاق ارادته .

ولما كانت الأفعال فى كثير منها يلتقي فيها عمل الغريزة وعمل الارادة فان الدعوة الاسلامية ..
((تعترف بسلطات النزعات الجبلية الى حد محدود ثم تترك المجال للهمم والعزائم فى الوقوف بتلك النزعات عند حدها ، ومقاومة الاسترسال معها فى غير ضروراتها الملبئة ،وصدق منزّل هذه الشريعة الحكيمة فى وصفه لدعوته ..
" قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى "[1]))[2]

---

١ - سورة يوسف آية (١٠٨)   ٢ - دراسات اسلامية "مصدر سابق" ٤٤

كذلك فان الاسلام كان فى تطبيقه لحدود الجبلة وعامل الاكتساب الإنسانى على طائفة من الإنبعاثات والانفعالات يضع ..

((أوضح منهج عملى لتربية الارادة ، وتدريبها على التزام موقف الحكمة والهدى ، والثبات أمام تيار الهوى))[1]

وذلك باعطاء كل من الجانب القسريِ والاراديِ حقه فى تناغم وتوازن واتفاق تسليما بالجبلة فى الانفعال أو المؤثر وتأكيدا لضرورة الحد من أثره ، وضرورة توجيهه الوجهة البنائية الإسلامية المرغوبة مثال ذلك))[2]

" كظم الغيظ والحد من الغضب "

فيفرض السيطرة على حركات ألسنتنا وجوارحنا ويحاسبنا على الأسلوب القوليِ والفعليِ الذيِ نختاره للتعبير عن شعورنا ، وفي اللحظة التيِ يدفعنا الغضب للتفوه بكلمة ، لا يأمرنا الرسول الحكيم بأن .. نسكت ونحبس أنفاسنا ، بل يرشدنا بالعكس إلى أن نقول شيئا ، ولكنه يختار لنا الصيغة المعبرة عن هذا الانفعال ..

" أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "

وكذلك حين يتطور الأمر إلى الرغبة فى البطش باليد

---

١ - دراسات اسلامية " مصدر سابق " ٤٥

٢ - راجع دراسات اسلامية " مرجع سابق " من ٤٥ الى ٥١

أو غير ذلك من الحركات البدنية فان الرسول الكريم يوفر العلاج الروحي والبدني بتحويل اتجاه الشر إلى وجهة أخرى في قوله صلى الله عليه وسلم ..

((اذا غضب أحدكم وهو قائم فليقعد ، فان ذهب عنه الغضب ، وإلا فليضطجع))[1]

مثل آخر في

" الحب والبغض "

حين تتجاوز الغريزة والارادة وحيث نحابي من نحب ونقسو على من نبغض ، ونفرق في المعاملة بين الاثنين ، ففي هذه الحالة حملنا الاسلام مسئولية عملنا وعافانا هما ليس من كسبنا .. يقول تعالى :

((واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى))[2]

ويقول سبحانه :

((ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا))[3]

وقد جعل لنا في ذلك الأسوة الحسنة بصاحب الخلق العظيم ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يعدل حق العدل بين زوجاته ثم يقول :

---

١ - رواه أبو داوود في كتاب الأدب

٢ - سورة الانعام آية (١٥٢)

٣ - سورة المائدة آية (٨)

((اللهم هذا جهدى فيما أملك ، ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك))[1]

مثل ثالث .. في ..

" انفعالات الحزن "

حيث فرق الرسول الحكيم بين الظواهر الحيوية والنفسية وبين الأقوال والأفعال ـ وكذلك الأمر بالنسبة لغريزة التشهي وما فيها من قسر وارادة أو غريزة وفعل .

ونخلص إلى القول بأن ((غرائزنا ونزعاتنا على هذا النمط ، لم يجعل الله لنا سبيلا عليها فى تكوينها ولا انبعاثاتها الطبيعية ، ولكنه جعل لنا عليها سلطانا فى ضبطها وتوجيهها ، وتنظيم آثارها العملية))[2]

والمسئولية صفة تلازم صاحبها فى فترة ممتدة ذات طرفين :

* بداية

* ونهاية

ففي البداية يكون نداء الواجب وفي النهاية تكون المحاسبة

---

١ ـ رواه ابن ماجه وأصحاب السنة

٢ ـ دراسات اسلامية " مصدر سابق " ٥٠

والتقييم ، وبينهما يكون الفعل والأداء .

((والشعور بالمسئولية شعور نبيل ، لأنه شعور بالاستقلال والتحرر من أسر الطبيعة ، شعور بالقدرة على تغيير معالم الأشياء وعلى معالجتها بالعزيمة والارادة المبتكرة ، شعور بالكرامة التي كرم الله بها بني آدم ، وبالفضل الذي فضلهم به على كثير من خلقه))[1]

((إننا لفطرتنا مسئولون ، لا سؤال اتهام ومناقشة حساب ، بل سؤال التماس ودعاء ورجاء . وليس الإنسان المسئول هو الذي يلتمس ويرجو ، بل هو المدعو المرجو .. فالمصالح المادية والأدبية تلتمس منه أن يقوم بأدائها ، والقيم الاجتماعية والأخلاقية والروحية تدعوه أن يتدخل بارادته وعزيمته لتحقيقها ، ثم تناشده مؤهلاته ومرشحاته نفسها أن يسرع إلى تلبية هذا النداء السرى العميق ، الذي تبسطه الكائنات بلسان حالها ، بل قبل أن تبسطه الأنبياء والرسل بلسان مقالها))[2]

((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون))[3]

---

١ - دراسات اسلامية "مصدر سابق" ٥٤ ٢ - دراسات اسلامية "مرجع سابق" ٥٧

٣ - سورة التوبة آية (١٠٥)

وتأكـــيدا علـــى دور الإســـلام فـى ايقـاظ المسئوليـــــة سـوف نتناول جوانـب ثلاثـة هامـة تختص بتلك المسألـــة ..

أ - تنمية الاحساس بالمسئولية :

جاء الاسلام رسالة إصلاح وتوجيه وخير للبشرية جمعاء ، فكان وسيظل ما بقيت الحياة على الأرض دستورا وتشريعا يهدي الناس في أمور دينهم ودنياهم ، ويأخذ بيدهم على طريق الفلاح والصلاح ، من أجل الفرد والمجتمع ، ومن أجل خير تلك الأمة ، خير أمة أخرجت للناس .

ولقد اهتم الاسلام إهتماما بالغا مشهودا عن طريق الأسرة ببعث الإحساس بالمسئولية في الفرد منذ خلق ، ثم تنمية الاحساس بالمسئولية مع نموه ، أينما كان موقعه وحيثما وجد ، مما يتضح في التربية الاسلامية ذاتها ، من بدء الزواج القائم على الانتقاء والاختيار إلى مسئوليات التربية الإيمانية والخلقية والجسمية والعقلية والاجتماعية والجنسية[1] وتربية الاحساس بالمسئولية الذاتية للفرد وفي اطار واضح من المثوبة والعقوبة ، وانطلاقا من الرغبة في مرضاة الله لا عن خوف ورهبة ، ولكن عن رغبة ومحبة واجلال .

---

١ - أنظر " تربية الأولاد في الاسلام " - عبد الله ناصح علوان - طبعة ثالثة ١٤٠١هـ/١٩٨١م دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع حلب ١٤١ وما بعدها .

ويأتي بعد التربية الاسلامية دور المجتمع ذاته في تنمية هذه المسئولية ، فالمجتمع الإسلامى ينميها بوجود القدوة الحسنة والمثل الطيب ، ويزيدها بتطبيق أحكام الشريعة الاسلامية فى اطار واضح من العدل والمساواة والحيدة والأخذ بأحكام الله .

ثم يأتي اثر ذلك دور الدعاة المصلحين ، وتنويرهم للناس ، وتعريفهم بمسئولياتهم ، ليس فقط الدنيوية ، وانما الدينية أساسا ، وتبصيرهم بأن الله سبحانه سائل كلًّا منهم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

يقول تعالى فى كتابه الكريم ..

((فوربّك لنسئلنهم أجمعين ، عما كانوا يعملون))[١]

ويقول جل شأنه ..

((وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون))[٢]

ويقول سبحانه :

((... تالله لتسئلن عما كنتم تفترون))[٣]

---

١ - سورة الحجر آية (٩٢ ، ٩٣) ٢ - سورة الزخرف آية (٤٤)

٣ - سورة النمل آية (٥٦)

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، والأمير راع ، والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته))(١)

إن بعث الشعور بالمسئولية وغرسها فى وجدان النشئ يبدأ من الأسرة ويمتد إلى المجتمع بنظامه وقيمه وجماعاته المتعددة المتنوعة ، وقبل هذا وبعده يتوقف على مدى نجاح المستقبِلْ وهو الذات البشرية فيِ اثراء داخلها بكل ذلك إلى الحد الذي تصبح السلطة الضابطة الداخلية فيها واضعة للمسئولية نصب عينيها دائما .

---

١ - أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن حنبل ، ونص الحديث من مسند بن حنبل الجزء الثانى ..

" كلكم راع وكلكم مسئول فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول ، والمرأة راعية على بيت زوجها وهى مسئولة ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول ،ألا فكلكم راع وكلكم مسئول "

ب ـ المسئولية : مراحلها ومراتبها وتضامنها :

تعتبر المسئولية في القوانين الوضعية وغيرها من النظم الوضعية الأساس الذي تقوم عليه سلامة المجتمع البشري . وتعتبر المثوبة والعقوبة الجناحين أو الركيزتين التي تقوم عليهما المسئولية .

فعلى جانبي المسئولية ..

* يمين
* ويسار

- فاليمين مثوبة
- واليسار عقوبة

وانطلاقا من هذين الجانبين داخل الذات يكون الفعل الحسّي أو غير الحسّي مسلكا للمثوبة أو العقوبة ، دنيوية أو أخروية .

وتعتبر الشريعة الاسلامية مطلب الأمن والطمأنينة والاستقرار أول المطالب الأساسية الثلاثة وهي ..

الأمن والصحة والقوت

وأن ما عداها يعتبر مطالب تكميلية يمكن أن تسير الحياة بدونها

كما ورد في الحديث النبوي الشريف ..

((من أصبح منكم آمنا في سربه ، ومعافا في بدنه وعنده قوت يومه ، فعلى الدنيا العفاء))[1]

---

١ - رواه الترمذي وابن ماجه في صحيحيهما باب الزهد

المرحلية :

ورسالة الأمن مسئولية خطيرة من نوع المسئوليات الاجتماعية وهى نوع من المسئولية التي يختلف معناها بحسب الرحلة أو الفترة التي نتوجه فيها ، ذلك أن المسئولية لها مرحلتان :

* مرحلة قبل القيام بالعمل
* ومرحلة بعد القيام بالعمل .

فالمسئولية قبل العمل تنظر إلى المستقبل فهي مسئولية تكليف ومطالبة ، والمسئولية بعد العمل تلتفت إلى الماضي فهي مسئولية استجواب ومحاسبة على ما فات ،

((فالمجال الذى يكون فيه الانسان مكرها منزوع السلطة يكون مسيرا غير مسئول))[1]

أما حين **يكون** مالكا لارادته وعقله فهنا تقع المسئولية :

((وهكذا تكون المسئولية فى هذه المرحلة صفة تشريف لأنها مرادفة للحرية والاقتدار والتمكن وامتلاك مقادير الأمور))[2]

---

١ ، ٢ - دراسات اسلامية " مصدر سابق " ٥٨

٢٠

التفاوت فى المراتب :

وتتفاوت مراتب المسئولية ودرجاتها تبعا لاتساع مجال جانب

((هذه المسئوليات التي تحددها ظروف كل منا في الحياة وعلاقته بالبيئة التي تحيط به ، ومركزه في المجتمع الذي يعيش فيه - إلى جانب هذه المسئوليات الخارجية مسئولية خاصة شخصية هي بمثابة المركز لكل دائرة من دوائر المسئوليات ، فكل امرئ يتوجب عليه نوعان من المسئوليات.

— مسئولية عامة يحددها مركزه في المجتمع

— ومسئولية عن نفسه

فهو مسئول عن جوارحه ومسئول عن عقله وقلبه ومسئول عن حاله ومسئول عن حياته وأوقاته لأن هذه كلها رعاياه بل هي أمر الرعايا .

وقد سمعنا في هذا قول الرسول الأمين ..

" لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس :
عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه ما عمل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه ."))(١)

١- دراسات اسلامية " مصدر سابق " ٥٩ ، ٦٠
والحديث رواه الترمذى فى باب القيامة .

متى نكون مسئولين عن أعمال الغير :

اذا قلنا أن المسئولية ازاء أفعال الانسان ذاته وأنها أحيانا تكون شخصية ذاتية وأحيانا تكون اجتماعية وفي كل الركيزة منها الإنسان الفرد فهل يعني هذا أننا لا نحاسب على أفعال غيرنا واذا جازت المحاسبة فبأي معنى ؟

يقول الدكتور دراز في ذلك ..

((ان هناك ثلاث حالات يجازى الإنسان فيها على عمل غيره :))[1]

١ - أن يكون لنا تسبب مقصود في عمل الغير بالأمر والايحاء فلا يكون علينا مسئولية الأمر والايحاء فحسب ، بل يكون علينا اما شطر من ثواب العمل أو يكون علينا شطر من عقابه .

٢ - أن يكون لنا تسبب بمجرد القدوة والأسوة والعدوى ، من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ، ومن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها .. إلى يوم القيامة .

---

١ - دراسات اسلامية " مصدر سابق " ٦٠ ، ٦١

٣ - أن يكون لنا تسبب في فعل الغير لا بقصد ولا بغير قصد ، ولكن يكون لنا تسبب في استمراره بالسكوت عنه وهذا هو النوع الذي تتجلى فيه حقيقة المسئولية الاجتماعية بمعناها الأخص والذي تعتبر رسالة الأمن والنظام أعظم فروعها وأعلاها في نظر الاسلام ..

((ذلك أن الشريعة وضعت ثلاث وسائل لمقاومة الشر والفساد في المجتمع وهي اما مقاومته وتنحيته باليد ، أو باللسان أو بالقلب وهي على الترتيب في الوجوب))(1)

والمقصود بالتغيير بالقلب المقاومة السلبية الأدبية وذلك عند العجز عن التغيير بالوسائل الايجابية باليد أو اللسان .

أما لمن سيكون تقديم حساب العمل ، فقد أوضح الاسلام أن مسئولية المسلم تكون مسئولية أمام الله فهي ذات نزعة دينية ، وأمام أنفسنا فهي ذات نزعة أخلاقية ، وهي أمام الناس فهي ذات نزعة اجتماعية ..

---

١ - دراسات اسلامية " مصدر سابق " ٦١

يقول تعالى :

((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون))[1]

ويتضح من هذه الآية ..

وجود المحكمة الإلهية .. " فسيرى الله عملكم "

والمحكمة الإنسانية .. " ورسوله والمؤمنون "

ومحكمة الضمير .. " فينبئكم بما كنتم تعملون "

وهذا أدق وأرقى نظام في اصلاح البشرية في ظاهرها وباطنها وفي سرها وعلانيتها ..

ثم يضيف الدكتور دراز فيقول ..

((إن كل امرئ منا مسئول إلى حد بعيد لا عن عمله . فحسب ولكن عن عمل غيره كذلك))[2] ويضيف ..

((إن الذين يقترفون الإثم من تلقاء أنفسهم ، غير مستنين بسنتنا ولا مؤتمرين بأمرنا ولا متبعين لايحائنا ، لو تركناهم وشأنهم

---

١ - سورة التوبة آية (١٠٥)

٢ - من خلق القرآن " مصدر سابق " ٨٣ وما بعدها .

وراجع " دراسات اسلامية " - مصدر سابق - ٧٣ وما بعدها .

يفعلون ما يشتهون على حسابهم وتحت مسئوليتهم ، اذا لاستلانوا مركب الضلالة واستمرؤوا مرعى الغواية ، وإذا لكانوا فتنة لغيرهم واغراء لضعفاء الارادة باتباع سبيلهم ، وإذا لانتشرت الآثام في الجماعة وشاعت المنكرات في الأمة ، ونحن مسؤولون عن طهارة المجتمع وسلامته ، وصلاحه واستقامته))[١] قال تعالى: ((ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض))[٢]

ثم يوضح الدكتور دراز ((أن المسئولية الأولى هي عمل الإنسان نفسه وإن كل ما عداها فإنما هو إنعكاس لأشعتها وترديد لصداها))[٣]

ثم يبين مسؤولية المغرر بهم ويقصد بهم أولئك الذين لا يقترفون الإثم عدوانا عن علم وعمد ولكن عن غفلة وحسن قصد[٤].

ويرفع الدكتور دراز تساءلا عما إذا كان أولئك الذين يفعلون السيئة وهم يحسبونها حسنة ويعتنقون الباطل وهم يظنونه

---

١ - من خلق القرآن " مصدر سابق " ٢٠٣

٢ - سورة البقرة آية (٢٥١)

٣ - من خلق القرآن " مصدر سابق " ٢١٧

٤ - من خلق القرآن " مصدر سابق " ٢٨٨

حقا ، ووقعوا فريسة الدعاية الكاذبة والأقاويل الخادعة المضللة فصدقوا ما سمعوا فامتثلوا واتبعوا أليسوا جديرين بأن ترفع عنهم كل مسئولية ومؤاخذة ، وأن يكون وزرهم كله على الذين ضللوهم وخدعوهم ، ثم يستشهد في الإجابة على التساؤل بما قال تعالى عن رؤوس الكفر والضلال من أنهم وهم المغررين لن يحملوا أوزار أنفسهم وأوزار أتباعهم كاملين في قوله تعالى ..

((ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم))(١)

ثم يشرح الأمر فيذكر أن المضللين يضاعف لهم العذاب لأنهم بعد ضلالهم جعلوا أنفسهم آلة لترويج الضلال وأداة لنشر الفساد .(٢)

ويضيف ((أن الرجل الذي يصل التغرير به إلى الحد الذي وصفت ، مسئول عن هذه النهاية ، لأنه هو الذي جرها إلى نفسه باستنامته واستسلامه منذ البداية))(٣)

---

١ - سورة النحل آية (٢٥)

٢ - من خلق القرآن " مصدر سابق " ١٩٠

٣ - من خلق القرآن " مصدر سابق " ١٩٠/١٩١

وأنه لم يستجب لما أمر به القرآن الكريم من أن يخلو كل منا بنفسه ويتساءل في هدوء وطمأنينة عن حقيقة الأمر في كل ما حوله من أفكار ، وعقائد وأخلاق وعوائد ليخرج منها برأي مستقل ، يحتمل هو مسئولياته وتبعاته ، مما يتضح فى الآيات ..

((أفلا تسمعون))(١)

((أفلا تبصرون))(٢)

((أفلا تتفكرون))(٣)

((أو لم يتفكروا فى أنفسهم))(٤)

---

١ - سورة القصص آية (٧١)

٢ - سورة القصص آية (٧٢)

٣ - سورة الانعام آية (٥٠)

٤ - سورة الروم آية (٨)

جـ - علاقة الترغيب والترهيب بالمسئولية :

يؤكد استقراء الواقع العملي أن معرفتنا بالمسئولية فقط ليس كافيا لامتناعنا عن آداء الفعل ويكفي للتدليل على ذلك الاشارة إلى حال مدمن التدخين أو الخمر الذي يعرف الضرر الذي يحيق به ولكنه مع ذلك يعاود التدخين أو شرب الخمر رغم معرفته تلك ، ومن ثم فلا بد من وسائل أخرى ((تحفز ارادتنا وتبعث همتنا على النهوض بتلك المسئوليات، وتمنعنا من اهمال تلك الواجبات))[1]

ومن ثم فقد وجد نوعان من الوسائل لمنع الاهمال والاجرام ،

النوع الأول :

هو الوسائل المادية التي تقوم على فرض العقوبة الرادعة حين تعدّى حدود القانون وفرض المكافآت السخية لمن يؤدي واجبه بصدق وأمانة وهذا النوع من الوسائل ((هو أحط أنواع التربية ، وأبعدها عن القيم الانسانية ، وفي

---

١ - دراسات اسلامية " مصدر سابق " ٧٠

الوقت نفسه هو أضعف أنواع العلاج أثرا ، وأسرعها تقلبا وأقلها ثباتا))[1]

وقد لجأت الأديان السماوية فى دعوتها الى وسائل الترغيب فى الثواب بالجنة والتخويف من العقاب بالنار ، وان كان الفرق والاختلاف واضحين بين الوسائل الآجلة والعاجلة ، وقد كان هذا الأسلوب أكثر استعمالا في الدور الأول من الرسالة الاسلامية ثم أخذ يضمر ويتضاءل بعد هذا الدور التمهيدي وأخذ يحل محله ..

النوع الثانى :

من الوسائل وهي الوسائل الأدبية التي تقوم على تربية الوجدان الخلقى وتربية الوجدان الاجتماعي وتربية الوجدان الأدبي .

((ان الذى يدرس القرآن الكريم يجده لا يكتفي بهذه الاشارات الاجمالية ، بل انه أخذ يعالج كل واحد من هذه المسئوليات المتنوعة ويثبت فى نفوسنا الشعور بكل واحد منها ، بمختلف الأساليب ، وبالجملة أخذ يربي فينا الوجدان

---

١ ـ دراسات اسلامية " مصدر سابق " ٧١

الخلقي على حدة ، والوجدان الاجتماعي على حدة ، ويكوّن فينا من مجموعة هذه المشاعر النبيلة نفسية كاملة ، ثم يكوّن من مجموعة الأفراد المهذبين أمة عظيمة مثالية))(١)

ففي أكثر من ألف موضع في القرآن الكريم يدعو إلى الفضيلة وينهى عن الرذيلة بغض النظر عن أي اعتبار سوى الاعتبار الأخلاقي مما يرسخ تربية الوجدان الخلقي ، كذلك فان القرآن ((يوقظ شعورنا بوجود محكمة أخرى خارج النفس هى محكمة المجتمع الذي يراقب أعمالنا ويصدر عليها أحكامه ، أحكام مادية تارة ، وأدبية تارة أخرى))(٢)

فالأولى .. هى المحكمة الرسمية وهى محكمة الدولة..

والثانية .. هى محكمة الرأي العام التي قال فيها..

" فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون "(٣)

فاذا أضفنا إلى ذلك تربية الشعور الديني لاتضح تصور وجود .. محكمة الضمير الذاتي ، ومحكمة المجتمع

ثم أخيرا نحن ننتظر المحكمة الإلهية العليا التي لا تخفى عليها خافية .

---

١ ـ دراسات اسلامية "مصدر سابق" ٧٣ ٢ ـ دراسات اسلامية "مصدر سابق" ٧٤

٣ ـ سورة التوبة آية (٩٤)

المبحث الرابع :

المسئولية الاجتماعية الكبرى

::

أ - مسئولية الولاة
" ولي الأسرة وولي الأمر العام "

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

((فوربك لنسألنهم أجمعين عمّا كانوا يعملون))[١]

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

((كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، والأمير راع ، والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته))[٢]

والمعنى بمسئولية الولاة المسئولية عن ((كل من تحت رعايتنا ، وكل من وكل أمره الينا - فلكل واحد منا - بهذه

١- صورة الحجر آية (٩٢ ، ٩٣) ٢- أخرجه البخارى ومسلم وأبا داود والترمذى وابن حنبل .

الصفة الجديدة - مسئولية جديدة ، ليست مسئوليتة عن نفسه ، ولكن مسئوليته عما تحت يده ، وعمن تحت يده ، مسؤولية الحارس والراعيِ عمن فيِ حراسته ، مسئولية الأمير والوالي ، عمن تحت امرته وولايته))[1]

والرعاية المشار إليها رعاية متبادلة وولاية مشتركة متقابلة مع تفاوت كبير فى درجات المسئولية .

((وهنالك مقاييس كثيرة ، أقربها لتصورك مقياس الكم ، مقياس المساحة والعدد . ذلك أنه كلما اتسع مجال النشاط المطلوب منك بذله ، كلما كثر عدد الأفراد المنوط بك رعايتهم وكلما ارتفع المكان الذى تشرف منه عليهم عظمت مسؤولياتك وتضاعفت تبعاتك ،دوائر بعضها فوق بعض ، تتدرج فى الاتساع على قدر تدرجها فى الارتفاع ، كأنها هرم مقلوب ، قمته المدببة فى أسفله وقاعدته العظمى فى أعلاه .. من رب الأسرة إلى عميد القرية ، إلى والى المدينة ، إلى أمير الاقليم ،إلى رئيس الدولة))[2]

---

١ - من خلق القرآن " مصدر سابق " ٢٣٩

٢ - من خلق القرآن " مصدر سابق " ٢٤٠ ، ٢٤١

((ان كل أمانة ـ دقت أو جلّت ـ ضيعها عامل ـ صغر أو كبر ـ فانها لا تقع تبعتها على العامل الذي ضيعها وحده ، ولكن يسأل عنها رئيسه المباشر ، الذي أساء الاختيار ، حين أسندها إلى من ضيعها ، ثم يسأل عنها من ولّى هذا الرئيس المباشر ، ثم من ولّى الذى ولّاه ، وهكذا تصعد المسئولية درجة درجة إلى كل من ولّى أو أمّر ، أو استخلف أو استوزر ، فلا يبرأ أحد منها أمام الله إلا بأحد أمرين ، إما باصلاح ما فسد ، وإما بعزل المضيّعين المفرّطين ، وتولية الصالحين المصلحين " ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شئ عليم "[1]))[2]

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القاتل والآمر فقال :

((قسمت النار سبعين جزءا ، فللآمر تسعة وستون وللقاتل جزء وحسبه))[3]

---

١ - سورة التغابن آية (١١)

٢ - من خلق القرآن " مصدر سابق " ٢٤٣

٣ - رواه أحمد فى صحيحه .

ب - المسئوليـــة والاكـــراه :

في هـذا النـوع من المسئوليـة يؤكد الدكتور الشيخ أن أمـــر الرئيس لمرؤوسيـه لا يعـد ((إكراها يخـرج المرؤوس عـــن ارادة نفســه ، ويبرئـه مـن تبعـة فعلـه ، فتلك دعوى لا تقرهـا دساتير الأرض ولا دستور السمـاء))[1] ثم يضيـف ((ان قـوى الأرض كلهـا لـو تظاهـرت علينـا بأمـرها واغرائـها وانـذارها وتـهديدها ، لتدعونا إلـى خير أو شـر ، ما كان ذلك ليسلبنا ارادتنا ، أو يلقـــى عنـا تبعاتنـا ، مادام فينا عقـل يفكـر ويـوازن ويحكم ، ومـادام لنـا سلطـان علـى جوارحنـا نصرّفهـا نحن باختيارنـا ، وليســت هـي التي تتحـرك بنفسـها حركة آليـة أو يحركهـا غيرنـا حركــة قسريــة ، فما دمنـا نستمتـع بهذا القسط مـن الوعي والضبـــط ، فنحن مسؤولون عـن عقائدنا وعـن أعمالنـا علـى الرغـم مـن كـــل الأوامـر والنواهــي التي تحاول أن تغـير وجهتنا ..))[2]

شـم نخلــص إلـــى القـــول ..

((ان الذي يسميه الناس اكراها انما هـو ضـرب من الضغط المـادي أو الأدبـي ، لا يسلب الارادة ولكنـه قـد يضعفها قليلا أو كثـيرا .

---

١ - من خلق القرآن " مصدر سابق " ١٨١ ، ١٨٢

٢ - من خلق القرآن " مصدر سابق " ١٨٣ ، ١٨٤

نعم . اذا بلغ هذا الضغط حدا تكاد تنعدم معه قوة المقاومة ، كان لنا حينئذ أن نسميه اكراها حكميا ، أو شبه اكراه ، وكان لنا أن نجعله رخصة وعذرا لا لأرباب العزائم القوية ، ولكن للضعفاء ، بصفة استثنائية . غير أن هذا الحد الذي يصح أن نسميه اكراها حكميا يتفاوت في نفسه تفاوتا كبيرا تبعا لاختلاف الوسائل التي تستخدم فيه ، واختلاف النفوس التي يقع عليها ، واختلاف الأغراض التي يتخذ من أجلها . فرب أمر واحد يعد اكراها في حال ، ولا يعد اكراها في حال أخرى . وليس المجال الآن مجال البسط والتفصيل ولكني أوجه نظرك إلى حقيقة قد يغفل الناس عنها ، وهي أن هناك حرمات مقدسة قد رفعتها الشريعة إلى الأفق الأعلى ، فلم ترخص لقوي أو ضعيف أن ينتهكها ، ولو في أشد حالات الإكراه والاضطرار))(١)

وهكذا يفصّل الشيخ القضية في أبسط وأدق صورة ، فيضع على خط المسئولية حدّا لا يجوز تجاوزه من قوي أو ضعيف ، ثم يظلل باقي الخط بظلال متفاوتة تتناسب عكسيا مع قدر الاكراه الواقع حتى يصل إلى الاكراه الحكمي ، ثم يحتاط فيذكر عدة متغيرات تتصل بالوسيلة وقدرات النفس والغرض تؤثر

---

١ - من خلق القرآن " مصدر سابق " ١٨٤ ، ١٨٥

فـى تحديـد الاكـراه الواقـع سلبـا وايجابـا .

والواقـع أن تقيـيم المسئوليـة والاكـراه فـى ضوء المتغـيرات التي ذكرنـا وفـى مناطـق تأثيرهـا الحدّيـة بالذات أمر بالـغ الصعوبـة قـد يصعـب علـى البشـر تحقيقـه ، وهـو أمـر يعلمـه عـلام السـر وأخفـى جـل وعـلا .

الخـــــــاتمـــــــة

==============

لا ينفصل نشاط الدعوة فى حياة الدعاة على امتداد حياتهم وإنما هم كالنجوم تبدو خافتة الوميض نسبيا ثم تزداد بريقا ولمعانا مع الوقت حتى تبلغ غايتها ، ثم تتلاشى مطمئنة الى أنها قد بلغت الرسالة وآن لها أن تذهب وتغيب ..

وكذلك كان المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز فى مراحل حياته المنفصلة نظريا المتصلة عمليا ، والتى يمكن تقسيمها الى ثلاث مراحل متداخلة لم تتوقف الدعوة أثناءها لحظة سواء عن طريق الفعل المحسوس أو القدوة المباشرة أو البناء الفكرى ، وبمعنى أشمل عن طريق العطاء بواحدة من صور التأثير الفعالة خلال هذه المراحل ..

فهناك ..

* مرحلة التكوين والإعداد
* ثم مرحلة التحرك من أجل الدعوة والعمل لها .
* ثم مرحلة التأمل والترسيخ والتسجيل والعطاء من خلال مؤلفات تخاطب وتدعو البشر جميعا على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم.

ومما يزيد فى قوة الحجج والأسانيد التى يوردها

الباحث الجليل انه لم يكتف فى مناقشته لنقاط البحث المختلفة بالرجوع الى نصوص القرآن الكريم أو الى ما أثر على السلف الصالح وعلماء الفقه ، بل وانه وفقا لطريقته فى التعمق يجهد عقله لكى يتصور ما قد يكون أن يوجه من اعتراضات على ما يقدمه من حقائق ، ويورد ما جاء بشأنها فى كتب المستشرقين والفلاسفة الغربيين ، ثم يرد عليهم بحجج عقلية من نوع حججهم ، فيكون فى ذلك أبلغ الرد عليهم وخير وسيلة لهدم دعاواهم ..

ولقد اتسم أسلوب الدعوة الذى انتهجه المرحوم الدكتور دراز بسمات ومعالم بارزة ومحددة تصلح أن تكون منهاجا لجيل الدعاة المسلمين وهى كما يلى :-

أولا :

========

الالتزام بالخط الاسلامى البارز فى سلاسة ومنطق وعرض القضايا الدينية الايضاحية والتفسيرية والتوجيهية فى بساطة تتيح فهمها لكثيرين مما يقع فى اطار السهل الممتنع ..

ثانيـــــا :

=======

الجمع بين الحداثة والتقليد ، أسلوبا وعرضا ومنطقـــا وتشبيهـا ومقارنـة واطارا ومنهجا ، ومخاطبـة النـــاس بأسلـوب العصـــر ووسائلـه لتفهـــم أمـــور دينهـــم ودنيـــاهـــم ..

ثالثـــــا :

=======

التعمـق فـى معالجــة قضايـا الدعوة الاسلاميــة فـــى وضـــوح مطلـــق ، بـل ووضعـهـا تحـت العدسات المكـبرة وتحليلهـــا واستخـلاص النتيجـة علـى أساس سلـيم مـــن البحـث والمنطـق العلمـــى ..

رابعـــــا :

=======

التصدى لدعاوى خصـوم الاسـلام وأعدائـــه ولـــــزلات المستشرقـين والـرد عليم وكشـف أراجيفهـم وأخطائهـــم بمـا يوضـح الحقيقـة فـى أغراضهـم وسـوء قصدهـــم أو فهمهـم ، مـع ابـراز المعانى والأحـــكام الحقيقيـة للديـــن الاســـلامـــى ..

خامسـا :

=======

تكامل وشمول المنهج بحيث أن الدارس لآثار المرحوم الدكتور دراز يدرك أنه قد استكمل الاطار الذى خطط له ، وعالج جميع القضايا التى هدف اليها فى تدرج وتكامل كالسلسلة المتصلة ، الى أن استكملت الصورة جميع ملامحها ، وبانت وحدة كاملة متصلة ..

سادسـا :

=======

التحرك فى الدعوة بأكثر من لسان مما حقق المدى الأوسع للانتشار ، وهيأ للكثيرين من غير الناطقين باللغة العربية معرفة الدين الاسلامى ودراسته ثم الدخول فى دين الله أفواجا ..

سابعـا :

=======

الجمع حين الدعوة بين الحجج العقلية والدلائل الحسية والأخرى الروحية مع مخاطبة الفطرة التى فطر الله الناس عليها كل ذلك فى اطار قوى ،

ونسيج محكم من البراهين والمنطق والاقناع ..

ثامنا :

=======

المزج بين الدعوة وبناء الدعاة ، فقد كان رحمه الله داعية بنفسه ، ثم من خلال عمله التربوى والتعليمى مسؤولا عن اعداد الدعاة الذين حملوا الدعوة الى جميع جنبات الأرض ..

تاسعا :

=======

الاسهام فى تحقيق - عالمية الدعوة - من خلال مؤلفاته العديدة ومقالاته وبحوثه ، وردوده على الفلاسفة والملحدين الماديين ، واعداده رسالتيه الأصلية والفرعية فى الدين الاسلامى فى فرنسا التى تعتبر قلعة من قلاع المسيحية والتبشير فى الغرب ، وتمثيله لبلده فى العديد من المؤتمرات الدولية..

عاشرا :

=======

تطويع كل وسائل النشر والاعلام المتاحة فى

عصره لخدمة الدعوة الاسلامية ..

احدى عشر :
=======

الاقتداء بهذا النهج الدعوى السليم الذى يجب أن يحتذي به جيل الشباب من دعاة المسلمين لتكتمل الصورة المشرقة للاسلام وتقفل أبواب الشر فى وجه دعاة العلمانية ..

وكأنما أراد الله سبحانه وتعالى لهذا الداعية الاسلامى أن يموت وهو ممسكا بسيفه يصول ويجول فى ميدان المعركة التى وهب لها حياته ، اذ وافاه الأجل المحتوم عندما كان فى لاهور بالباكستان ممثلا لمصر فى مؤتمر الثقافة الاسلامية - فبكاه الأزهر وافتقد العالم الاسلامى عالما مجاهدا جليلا . وخسرته الجامعات أستاذا عظيما ، ومؤلفا بارعا ، ونابها كبيرا ، وخسره العلم والأدب مؤلفا وكاتبا فذا ، وخسرته الاذاعة محدثا لبقا بليغا ..

وسيظل عالمنا الجليل رحمه الله الدكتور محمد عبد الله دراز حيا بيننا بمؤلفاته وغزيز عطائه .. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ..

التوصيـــــــــــات

============

بعد أن استعرضنا أبرز أفكار الدكتور دراز ، وتبينا ملامح شخصيته نستطيع أن نوصي بما يلي :-

١) أن نتجه في اعداد الدعاة اتجاها يحقق السعة العلمية والثقافية والفكرية ، وأن ينتقى لتلك المهمة من لديهم استعداد ديني وذكاء خاص ..

٢) أن يتناول الاعداد في سعته اللغات الأجنبية ومعرفة الأفكار المطروحة على أن تكون المعرفة بالأفكار عميقة ودقيقة حتى يستطيع الداعية سبر أغوارها وبيان علاتها والرد عليها ..

٣) الوقوف على مناهج البحث العلمي المعاصر ودراستها واخضاعها للمنهج الاسلامي لتكون الأفكار مسلمة ومدعمة بالحجج والاقناع ..

٤) ألا نغفل بالمرة التأصيل العلمي الموروث ليستطيع الدعاة ابراز عظمة الاسلام في مواجهة الأفكار والمذاهب الأخرى ..

٥) أن تنهض الجامعات الاسلامية وعلى الأخص كليات الدعوة بهذا العبء وأن تخرج من اطارها التقليدى ، وأن تحدد المشاكل بدقة مع دراسة طرق حلها ووضع الحلول المناسبة لها ..

آمل بعد ذلك كله أن أكون قد وفيت الموضوع حقه فان جانبنى التوفيق فى بعض النقاط ، فذاك من طبيعة البشر ، وسبحان من لا يخطىء ، وان وفقت فذاك فضل من الله ..

أحمده وأشكره عليه وله الحمد أولا وأخيرا ...

المصـــادر والمراجـــع

* القـــــرآن الكريـــــــم .

* أبى الحسن أحمد بن فارس بن زكريـــا
معجم مقاييس اللغة - تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون
شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصـــر
الطبعـــة الثانية ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

* الامام أبى محمد على بن حزم الأندلسى الظاهـرى
الامام أبى الفتح عبد الكريـــم الشهرستانـــــى
الفصل فى الملل والأهواء والنحل وبهامشه كتاب الملل والنحل

* الامام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى
٢٠٦ - ٢٦١هـ
صحيـــح مسلـــم شرح الامام النـــووى
رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشـــاد
بالمملكة العربيـــة السعوديـــة .

* القاضى أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى
٤٨١ - ٥٤٦ هـ
المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز
وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية بالمغرب
١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

* الامام العلامة أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقى المصرى
دار صادر ، دار بيروت ، للطباعة والنشر ببيروت
١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م

* قاضى القضاة الامام أبى السعود محمد بن محمد العمادى
تفسير أبى السعود المسمى ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم
دار احياء التراث العربى بيروت / لبنان

* أبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى
الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل
شركة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر
الطبعة الأخيرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

* الشيخ أبو الحسن على الحسينى الندوى
الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية فى الأقطار الاسلامية
دار القلم بالكويت
الطبعة الرابعة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

* الامام أبى البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى
تفسير النسفى
دار الكتب العربية بيروت / لبنان

* مسند الحافظ أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ابن ماجة
٢٠٧ - ٢٧٥ هـ
حقّق نصوصه ورقّم كتبه ، وأبوابه ، وأحاديثه ، وعلق عليه
محمد فؤاد عبد الباقى
عيسى البابى الحلبى وشركاه

* البهى الخولى
تذكرة الدعاة
مكتبة الفلاح الكويت
الطبعة السادسة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

* أبـو الأعلـى المـودودى
نحـن والحضـارة الغربيـة
الـدار السعوديـة
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

* أبـو بكـر ذكـرى
تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العمليـة
١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م القاهـرة

* أبو بكر محمد بن الطيب الباقـلانى
اعجـاز القـرآن
دار المعـارف مصـر
١٩٦٣ م

* العلامـة اللـغوى الشيـخ أحمـد رضـا
معجـم مـتن اللغـة
دار مكتبـة الحيـاة بـيروت
١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م

* الامام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى ٧٧٣ - ٨٥٢هـ
فتح البارى بشرح صحيح الامام أبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى
رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد
بالمملكة العربية السعودية

* شيخ الاسلام أحمد بن تيمية
مجموع فتاوى شيخ الاسلام أحمد بن تيمية
مكتبة المعارف / المغرب

* سيد قطب
فى ظلال القرآن " معالم على الطريق "
داراحياء الكتب العربية
الطبعة الثانية

* عباس محمود العقاد
" الله " فى نشأة العقيدة الالهية
دار المعارف بمصر
الطبعة السادسة

* عز الدين بليق
منهاج الصالحين
دار الفتح للطباعة والنشر / بيروت
الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

* د / عبد الله يوسف الشاذلى
المنهاج القرآنى " تكوين واقناع "
المكتبة القومية الحديثة بطنطا

* البرفسور عبد الأحد داود
محمد فى الكتاب المقدس
رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر
الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

* عبد الله ناصح علوان
تربية الأولاد فى الاسلام
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع / حلب
الطبعة الثالثة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

* د / على سامى النشار وآخرين
مجموع عقائد السلف
مصر ١٣٩١هـ - ١٩٧١ م

* عبد الكريم الخطيب
الدين ضرورة حياة الانسان
مؤسسة دار الاصالة للثقافة والنشر والاعلام بالرياض
الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

الاعجاز في دراسات السابقين
دار المعرفة / بيروت
١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م

* الامام الحافظ عماد الدين أبى الفداء اسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى
تفسير القرآن العظيم
دار الدعوة بتركيا
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م

* مجد الدين الفيروز أباذى
القاموس المحيط
المكتبة التجارية الكبرى بمصر

* د / محمد البهى
الاسلام فى حياة المسلم
مكتبة وهبة بمصر
الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى
دار الفكر / بيروت
الطبعة السادسة ١٩٧٢ م

* محمد أبو زهرة
المعجزة الكبرى " القرآن "
دار الفكر العربى / مصر
١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

* محمد الـراوى
الدعوة الاسلامية دعوة عالمية
دار العربية بيروت / لبنان

* د / محمد عبد الله دراز
النبأ العظيم " نظرات جديدة فى القرآن "
دار القلم بالكويت
الطبعة الثالثة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

* د / محمد عبد الله دراز

دستور الأخلاق في القرآن " دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن "

تعريب وتحقيق وتعليق د / عبد الصبور شاهين

دار البحوث العلمية بيروت

الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

من خلق القرآن " تحقيق عبد الله الانصارى "

من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية بدولة قطر

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م

الدين " بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان "

دار القلم بالكويت

الطبعة الثالثة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م

من أجل سعادة البشر " وثيابك فطهر "

دار الأنصار / عابدين القاهرة

الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م

* د / محمد عبد الله دراز
دراسات اسلامية فى العلاقات الاجتماعية والدولية
دار القلم بالكويت
١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م

مدخل الى القرآن الكريم
دار القلم بالكويت
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

المختار " من كنوز السنة النبوية "
مطابع قطر الوطنية
الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

الاسلام " الطريق المستقيم "
دار مكتبة الحياة / بيروت
١٩٦٣م

* محمد فؤاد عبد الباقى
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
دار الدعوة بتركيا
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

* د / محمد يوسف موسى
الاسلام وحاجة الانسانية اليه
الشركة العربية للطباعة والنشر مصر
الطبعة الثانية ١٩٦١م

* د / محمود بن شريف
الأديان في القرآن
دار عكاظ للطباعة والنشر
الطبعة الرابعة ١٩٧٩م

* د / نبيل محمد توفيق السمالوطى
الدين والبناء العائلى
دار الشروق
الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

* د / يوسف قاسم
مبادئ الفقه الاسلامى
دار النهضة العربية / مصر
١٤٠١هـ - ١٩٨١م

فهـــرس الموضوعـــات

***

* الفصـــل الأول

* الفصـــل الثانى

* الفصـــل الثالث

* الفصـــل الخامس

....